نصف ضوء

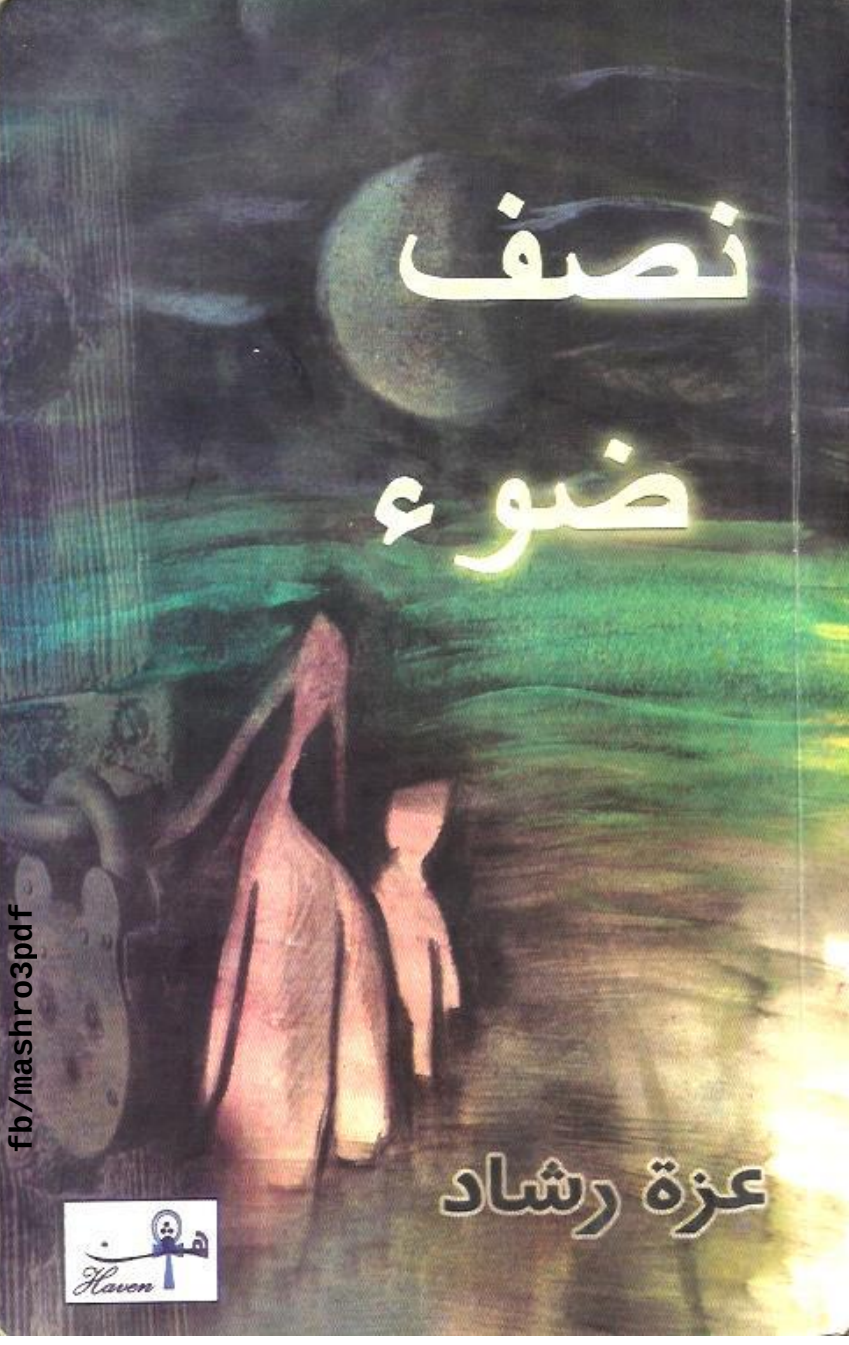

عزة رشاد

fb/mashro3pdf

نصف ضوء

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

نصف ضوء

مجموعة قصصية

عزة رشاد

الناشر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الكتـــــــاب : نصف ضوء

الكـــاتب : عزة رشاد

رسوم الغلاف والتنفيذ: علا حسن بدار

الناشر : هڤن للترجمة والنشر والبرمجيات.

العنـــوان : ٥ ش احمد طلعت-المبتديان-

رمز بريدي 11461- القاهرة.

تليفون وفاكس : 20227922715+

المحمـــــول : 20122627858+

20171601834+

الطبعـــة الأولى : 2010

رقـــــم الإيداع :22661 /2009

الترقيم الدولي : 978-977-6310-54-4

www.haveneg.com
info@haveneg.com
haven@haveneg.com
afaf_000@hotmail.com

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المدير العام
د. عفاف عبدالمعطي

مستشارو التحرير

د. حسن هند
أ/ شوقى جلال
د. عبدالمنعم تليمة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

استنادا الى نصوص الدستور والقانون التي تحمي حرية التعبير وإيماناً من دار "هفن" للترجمة والنشر والبرمجيات بـ"ليبرالية" الفكر والثقافة، فإن صاحب الكتاب مسؤول وحده عن ما يبديه من آراء وردت به وتتعهد دار "هفن" بنشر الرأي والرأي الآخر.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

*القسم الأول:
نصف ضوء:

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

١ – الرابحة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

وحدك لم تتغيري "أيتها الماكرة"، بينما أكلتنا الكهولة، سعاد سمنت وترهل جسمها بعد أن امتلأت بطنها وأفرغت حمولتها أربع مرات، نصفهم أولاد ونصفهم بنات، هذا بخلاف آلام الظهر والمفاصل التي اقتنصت ضحكتها القديمة المميزة، أما هند فعودها النحيل لم يتغير لكن الهموم والتجاعيد تجعل من يراها يعطيها عشر سنوات فوق عمرها، وأنا، والحمدلله على كل شيء، أخذت بعضاً من هند وبعضاً من سعاد، فالمرء على دين خليله كما تعلمين.

أنتِ الوحيدة التي مازلتِ جميلة وشابة، بشعرك الأسود الطويل تعقدينه "ذيل حصان" بشريط وردي، وعينيك الواسعتين المندهشتين، وساقيك الطويلتين المنفلتتين من تحت المريول الكاكي، كما شهدتك ساحة المدرسة، وأنتِ لم تبلغي بعد عامك السادس...

ستة أكف متشابكة في أغنية البنات الطفولية:

إحنا التلاتة..... سكر نباتة

تظهرين أمامنا وحيدة ومرتبكة، في أول يوم لك بالمدرسة، تدورين حول نفسك:

دوخيني يا لمونة دوخيني...

أفك تشابك يدي من يد سعاد وتلتقط كل منا إحدى كفيك الصغيرتين ونعدل غنوتنا:

إحنا الأربعة..... أجمل أربعة

نقطع عود العسلية إلى أربع قطع متساوية، ونقسم حبات الحرنكش على أربعة، ونمرر الدومة المعسلة علينا، كل واحدة قضمة، ونفرش فوق حصى الحوش وشاح هند لنعمل غديوة في

fb/mashro3pdf

فسحة المدرسة بتشاركنا سندوتشات الجبن القريش والحلبة المحوجة والبطاطس المحمرة والحلاوة الطحينية.

لكننا، بعد فترة قصيرة، سنقذفك بـنفس الحـصى ونجرسـك بالصياح

يا فاطرة رمضان يا خاسرة دينك

كلبتنا السودة هتقطع مصارينك

حدث هذا بعد أن ضبطتك هند تقضمين الرغيف الساخن وهو خارج من الفرن قبيل المغرب في أول يوم بحياتنا، نصومه كـاملاً احتجاجا على اتهام الكبار لنا "أبناء أولى ابتدائي" بالـضعف وقلـة الاحتمال تجاه البأس الذي يحتاجه صوم الشهر الكريم.

تثورين على اتهامنا وتبررين فعلتك الجبارة بعبارة خرجت من فمك صادقة تماما، فأخمدت ثورتنا، لكنها جعلت أمي تنحنـي مـن الضحك والعجب حينما ذكرتها لها:

ـ أنا دقته. بس مابلعتهوش.

تثورين على سخريتنا وتتعالين على لعبتنا وغنوتنـا وتفكـين كفيك وتبتعدين. تدورين في خيلائك البعيد وفي الوسـعاية الممتـدة تحت البيت:

دوخيني يا لمونة دوخيني....

وتدارين تقصيرك في حفظ القرآن في كتّاب الـشيخ إبـراهيم بعبارة تفطسنا من الضحك وتكف يده عنك:

ـ الذنب مش ذنبي. ده ذنب مخي. هوه اللي مابيعرفش يحفظ.

fb/mashro3pdf

نداري ضحكاتنا في ثنايا أكمامنا "كنا صغاراً وليغفر المولى لنا ولكِ"، بينما ينظر الشيخ إبراهيم لبراءة وجهكِ حائراً وعاجزا عن التصرف، وعصاه المرفوعة في وجهك ترتد إلى جانبه، ويده التي ضربت كل من أخطأت في كلمة أو حتى حرف واحد تنجحين في جعلها تقتصر عنك أيتها الماكرة. الشيخ إبراهيم الذي تجهم وجهه ولم يستطع أن يأخذ منك حقاً ولا باطلاً لن يسعفه لسانه قبيل انتهاء الدرس سوى بالصياح بعبارة واحدة:

ـ اللي مخه مابيعرفش يحفظ ما يورينيش وشه تاني.

ورحنا نكبر ويكبر معكِ عنادك، فتناكفين أبله وداد مدرسة الفيزياء:

ـ مابأحبش الفيزياء. غصب عني

تنظر لكِ مندهشة وهي تفكر بعبارتك عاجزة عن الرد إلا بعد برهة طويلة وتدهشنا بصوتها المنخفض وغير الحاسم:

ـ مفيش في المدرسة حاجة اسمها بأحب وما بأحبش.

تربحين هذه الجولة أيضاً بمفاجأة غرمائك وإرباكهم فيعجزون عن النيل منك.

تسألك سعاد:

ـ مابتحبيش الفيزيا! طب بتحبي إيه؟

كان حلم سعاد أن تصبح طبيبة تداوي المرضى فيمطرونها بالأدعية الطيبة، وكان حلم هند أن تصبح معلمة تربي النشء على السلوك القويم، وكان حلمي أن أصبح داعية لدين الحق، يصل صوتي إلى كل حدب وصوب.

fb/mashro3pdf

ـــ وأنتِ؟

ـــ نفسي أبقى.....

ـــ نفسي أبقى.....

ـــ ها؟

بعد أن تطلّعي روحنا تفاجئينا، وأنت تميلين فوق الجسر يميناً ويساراً، بتلك الإجابة العجيبة التي تميتنا من الضحك

ـــ نفسي أبقى عروسة النيل.

إجابة متعجلة أسعفتك بها رؤيتك للماء يجري تحت الجسر أم كان إلهاما من المولى عز وجل؟

ـــ ومين قالك يا اختي إن النيل ناقصه عرايس!!

تغضبين من سخريتنا قليلاً ثم تتحينين الفرصة لمصالحتنا في اليوم التالي، لكن كله كوم وحكايتك مع أبله رقية، مدرسة الثانوي، كوم:

ـــ الجونلة دي لازم تطول شوية. حطي ف عينك حصوة ملح!

وفيما تلتف عيوننا حول ساقيك الممشوقتين تفاجئيننا بدوي حنجرتك المنفلت:

ـــ الملح خلص من زمان. أعملك إيه؟

سعاد، التقية منذ طفولتها، عندما لاحظت نمو نهديها غطت جسدها كله بالعباءة الفضفاضة، وهند التي كان شعرها أجمل ما فيها غطته بخمار طويل، وأنا الغيورة على ديني راعيت أن أكون قدوة للأخريات فرفضت لبس البنطال والثياب القصيرة وحافظت على

fb/mashro3pdf

حجابي وهو لم يجب عليّ بعد، فيما أنتِ مستمتعة بهدهدة ذراعيكِ المكشوفتين :

ـ اللهم دمها نعمة واحفظها من الزوال.

..أتأمل ذراعيك المكتنزتين البديعتين ثم ألتفت مبتعدة بعيني عنهما وأستغفر الله عنكِ وعني.

وتحتملين، في ذلك اليوم، من عصا أبلة رقيه عشر ضربات، خمس على كل كف، دون أن تنزل دمعة من عينك، ثم تلومينا في المرواح لأننا لم نقف معكِ ضدها، هذا لأنكِ لن تلاحظي الغضب الذي منحته عبارتك المستخفة لعينيها، لم تلاحظي انتفاضة عضلات وجهها وكم التوتر الذي عانته بسببك، أنتِ، الشريك المخالف كما كان يحلو لها أن تصفك مفسرة سلوكك المدهش بالرغبة التافهة في لفت الأنظار ليس إلا.

حكاية العصي العشر كانت ستصبح الموضوع الأكثر ذيوعاً بالمدرسة لعدة أيام تالية لولا أن غطت عليها حكايتك الأخرى.. عندما ركلتِ شاباً، كان متزعماً زميليه في معاكستنا في الطريق بسبب جونلتك القصيرة، ركلته ركلة أسفل بطنه جعلته يتلوى ويصرخ متألماً فيضطر زميليه لنقله للمستشفى ويغدو حديث البلدة كلها هو توبة الشبان عن معاكسة البنات بفضل البنت ذات الساقين الطويلتين وتربحين هذه المرة أيضاً، بفضل رب العباد الذي ينقذك كل مرة وبدلاً من أن تدركي خطورة بدعك ومغامراتك تسخرين من نصائحنا عن أمان البنت بالالتزام واجتناب الشبهات، وتتمادين في خرقك لكل مألوف فيزداد ترجيحي بصحة تصور أبله رقية عن

fb/mashro3pdf

ولعك بلفت الأنظار الذي تؤكدينه بردك المستهتر عندما نحذرك من عاقبة سفورك وتبرجك:

ـــ اللي يبان مني.. زكاة عني.

عبارتك المأثورة المحتشدة بالدلال والاستهتار، التي لو قالتها غيرك لاستحقت في نظري القتل، غير أن الجيرة وصداقة الأهل وزمالة الفصل، تجعلني أتمتم بالاستغفار لي ولكِ.

لكن الذنب هو ذنب الأبله "شاديه" موجهة الفنون التي حضرت معنا حفل المدرسة الثانوية..

أعددت نفسي لتلاوة آيات من الذكر الحكيم كافتتاحية للحفل، كما جمعت سعاد بعض الحكم والمواعظ ونبذة عن الإسعافات الأولية وتطوعت هند بعمل السندوتشات والكيك والشاي..

ـــ وأنتِ؟

ـــ مش عاملة حاجة.

ثم تفاجئيننا قبل نهاية الحفل، عندما أخذ الولد تامر، أخو زميلتنا هالة، يعزف على الأوكورديون، تفاجئيننا بتلك الخطوات البهلوانية التي سايرت إيقاع الأوكورديون بشكل أثار بهجة أبله شاديه فقفزت نحوك مصفقة ومهللة، وراحت تلوم مديرة المدرسة:

ـــ معقول تهملوا المواهب الأصيلة دي!؟

ينشال أبوكِ وينهبد : فرقة فنون شعبية؟ عايزة تبقي رقاصة يا بنت الحاج علي؟

تلوي سعاد شفتيها بأسى: يخلق من ضهر العالم فاسد !

fb/mashro3pdf

تقفين على أطراف أصابعك وتدورين بطول الصالة وعرضها، تحسبين والدتك الطيبة ستقتنع بموهبتك المزعومة وتدعم موقفك أمام أبيك الحاج علي:

ــ موهبة إيه! وزفت إيه! عايزة تفضحينا في البلد؟

ترقيكِ والدتك وتدور تبخر البيت من الفجر حتى الضحى كـــى يبتعد عنه الشيطان الرجيم؟

أتذكر عبارة أبلة رقية، فأهمس لأبيك ألا يضخم الأمر كـــي لا تتشبثي به أكثر، باعتبارك الشريك المخالف، لكن أباك يعود ويلومنا مؤكدا أن موقفه غير الحاسم زادك ولعاً وتمسكاً بمبتغاكِ اللعين.

لم يهدأ للحاج علي بال حتى ذهب بنفسه إلى المدرسة ووبـــخ المديرة على الفكرة المبتدعة كما سمعنا أنه ذهب في ذلك حد تهديدها بتحرير محضر شرطة ضدها إذا لم تسحب اسمك من فرقة الفنون.

أما أنتِ فقد رفضتِ نصحنا وسخرتِ من تحذيراتنا:

ــ عايزة تعرضي جسمك للناس؟

ــ البنات بفرق الفنون والرقص عمرهم ما يوردوا على جنة

تصيحين بغيظ:

ــ إيش عرفك؟ خطفتي رجلك لغاية هناك وشفتي مين في الجنة؟ ومين في النار؟

نستغفر الله عنك ونتضرع له أن يغفر لكِ وأن يهـــديكِ ســـواء السبيل.

fb/mashro3pdf

لا أعرف كيف سارت الأمور بينك وبين الحاج علي، غير أن إذعانك للأمر الواقع كان جلياً في انكسارك واقتصارك عنا. نصلي وندعو لكِ بالهداية والغفران

ـ خليكم في حالكم أحسن

كل ما قلتيه وما فعلتيه لم ينجح في جعلنا نتخلى عنكِ، ولم يزعزع إصرارنا على هدايتك قط.

احنا الأربعة..... أجمل أربعة

غير أنني كنت، وليغفر المولى لي ولكِ، راغبة في قتلك عندما وشت بك خادمة سعاد..

ما الذي في الولد تامر، الذي يلبس قمصانا مزركشة ولا يبين بصوته هيبة الرجال، ما الذي فيه أو في غيره، يغريكِ بارتكاب المعاصي!؟

ـ كنا بنتمشى ونتكلم عادي.

ـ عادي!!! إستغفري الله.

خفنا عليكِ، على رأس الحاج علي الذي تصرين على وضعه في الطين بدمٍ بارد، فاشتعلت عزائمنا على هدايتك... مهما كلفنا الأمر.

التقيناكِ قرب رأس الجسر....

كلمة من سعاد وصيحة من هند وتحذير مني، وأنت تتلقين سياطنا بوجه متجهم وتكتمين الكلمات داخلك، فقط، حسب ما تذكرت فيما بعد، كنتِ تسعين لإنهاء الكلام بأسرع ما يمكن...

fb/mashro3pdf

ـ غريق.. غريق

تلطم هند وجهها:

ـ إحنا السبب. قسونا عليها.

فضلنا نلومها ونؤنبها....

تبكي سعاد وهي تهدئها:

ـ قدّر الله وما شاء فعل.

في البداية تضرعت إلى الله ألا يعتبر فعلتكِ انتحاراً "من الكبائر" لأنها تعبر عن ندمك، والندم أول طريق التوبة كما يؤكد أنك لم تكوني في وعيك عندما قذفت بنفسك في النيل، ثم ظهر شاهد عيان... يروي أن سقوطك بالنهر لم يكن متعمداً بل حدث نتيجة ترنح وعدم اتزان، كما اعترف عم بسطاويسي مساعد الصيدلاني بأنه أعطاكِ مسكنا قوياً للآلام بسبب إصابة في ركبتك خفتِ أن تمنعك من حضور أول بروفات الفرقة الفنية في الصباح التالي ـ بكل إصرارٍ على استمراء المعصية ويا للعجب ـ مؤكداً أنه أوصاكِ بسرعة العودة للبيت. لكننا التقيناكِ، واستوقفناكِ، حتى سرى بجسمك، فيما يبدو، فعل المخدر، فهويتِ، وأنتِ عند منتصف الجسر.

وسواء اخترتِ هذا المصير أم هو الذي اختاركِ فلن يمكنني إنكار أن شيئاً، لا أدري تحديداً ما هو، قد تغير بعد هذه الليلة...

المقاعد التي نجلس عليها منذ سنوات طويلة ناءت بحمولتها المرهقة، والمرايا صارت تخفي عنا لمعتها كأنها سئمت شحوبنا وتهفو لنضارة ملامح جديدة، ومن سيمتد بها العمر منا ستشهد ازدياد

fb/mashro3pdf

ثقل وجودها في أعين أبنائها. أنتِ وحدكِ ستبقين جميلة ومحبوبة إلى الأبد.

سعاد لم يؤهلها مجموعها بالثانوية لدخول كلية الطب، وهنـد صارت معلمة أبعد ما تكون عن تلك التي تمنت أن تكونها، وأنا لـم أصبح داعية ولا أي شيء آخر، هذا أمر المولى عز وجل وله فـي ذلك حكم .

الجسر الذي هويتِ من فوقه أطلقوا عليه اسم: جسر الشهيدة ! والمزارعون الذين لاحظوا سخاء النهر بعد أن ابتلعك يقـرأون لـك الفاتحة في الذهاب والرواح ويطلقون عليكِ : عروس النيل.. تمامـاً كما تمنيتِ، أنت وحدك التي ربحتِ، وحققتِ كل ما حلمتِ به !!

ألست أنتِ التي تقمصتِ يدي الآن وجعلتني أوقـع "تـوقعين" لابنتي الصغيرة على استمارة الالتحاق بفرقة الفنون بالمدرسة، رغم معارضة أبيها، و.. معارضتي... أيتها الماكرة !

fb/mashro3pdf

٢-المفعوصـــــــــة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ورغم كل حذرها وخبراتها في فنون الشب على القدمين والتشعلق بأي شيء حتى لو كان أرفع فروع الشجرة، أو حبل الغسيل، فقد حدث ما حدث..

أحست بالأشياء التي كانت قد اقتربت منها عندما وصلت إلى أعلى الدولاب تبتعد. لمبة الكهرباء المتدلية من منتصف السقف راحت تصغر، الشرخ الرفيع بأعلى الجدار القريب راح يشحب، صورة أختيها المعلقة على الجدار الآخر غابت منها الملامح وبقيت كلوحة صغيرة ملونة، أما العنكبوت الصغير الذي كانت تراقب صعلكته فوق مرآة التسريحة، فكان قد اقترب من السقف عندما أحست بجسمها يرتطم بالأرض.

عندئذٍ أمكنها، بهدوءٍ واستسلام، أن ترى، رغم شعاع الشمس الساقط فوق عينيها، قواعد الأشياء: قاعدة الشمّاعة الأسطوانية الخشبية تغطيها طبقة خفيفة من الغبار وأرجل الدولاب: أحدها معوجة وعلى وشك الانبطاح، وتحت السرير الذي تغطيه ملاءة طويلة رأت الوشاح الحريري الملون الذي ظنته أمها ضاع منها بعد أن قلبت البيت عليه ولم تجده، رأت أيضاً كليم الأرضية العامر ببقايا الطعام الصغيرة التي لا يراها الواقفون، والأحذية والشباشب المتناثرة بفوضى فوق الأرض، رأت كل الأشياء قريبة وساكنة وأدركت أن العالم مازال كما هو وأنها وحدها التي هوت.

تعرّف لسانها على طعم غريب، لكنها لم تعرف من أين أتى!؟

أحست بدماغها آخذة بالضياع، وصارت حواسها أهدأ من الطبيعي وشبه مخدرة، ووصل إلى سمعها دبيب أقدامهم خافتاً، ثم مسرعاً ومرتبكاً، وبدت صورهم وهم يقتربون منها مهتزة وباهتة.

fb/mashro3pdf

التفوا جميعهم حولها، أمها وأختاها وجارتهم العجوز التي كانت تحتسي كوب "الحلبة الحصى" وهي جالسة مع أمها بالصالة وقت أن حدث ما حدث. جاء صوت أمها ملتاعاً ومتذبذباً وهي تحذرهم من أن يمسها أحد وتأمرهم بالاتصال بالطبيب.

ورغم الخدر فقد أحست بشعاع الشمس المتسلل من فتحة الشيش يسقط فوقها ويضيئها بالكامل، يضيئها وحدها بالحدود الدقيقة تماماً لجسمها، كأنه تجلى خصيصاً لأجلها وحدها.

لأول مرة تشعر أنها مرئية..

.. كانت تمر أمام أمها فلا تراها، أغلب المرات، فيما هي مشغولة بإعداد شوربة الخضار لأختها الصغيرة "آخر العنقود" أو بمراجعة الطبيبة حول تغيرات البلوغ التي ظهرت على أختها الكبيرة "البكرية". فقط كانت تراها عندما تحتاج مساعدتها في نشر الغسيل أو كي ما جف منه أو تنفيض الفرش أو حين ترسلها لشراء طلبات البيت.

آخر العنقود، التي لا تكف عن الصياح ومحاولة الاستئثار بكل اهتمام الآخرين، وقفت بجوارها صامتة، ساهمة النظرة، فاغرة الفاه، تتدلى من يدها أوزتها المطاطية الصغيرة التي تصدر صفيراً حاداً ومزعجاً في العادة مع كل ضغطة، تتدلى الآن صامتة.

سمعت نهنهة البكرية وأحست بها تضغط يدها بقلق ومحبة، مع أنها لا تتوقف عن شتمها أغلب الوقت واتهامها بالتفاهة والغباء، خاصة عندما تكون مشغولة بأداء الواجبات المدرسية.

جارتهم العجوز راحت تتلو آيات قصيرة ودعوات لمن كانت تصفها ليل نهار بأنها "معجونة بمية عفاريت"، وعادة ما كانت

fb/mashro3pdf

تتراجع عن صفعها في اللحظة الأخيرة عندما كان يزعجها لعبها الحجلة فوق السطح ودبدبتها فوق رأسها، تتراجع فقط حرصاً على الجيرة الطيبة وليس حرصاً عليها.

فاجأها وجود جارهم طالب الطب، كان قريباً منها فأمكنها من بين جفنيها شبه المغلقين أن تراه جيداً، اكتشفت أن عينيه عسيليتين وأنه أكثر وسامة مما يبدو، سمعت صوته الدافئ لأول مرة وهو يطمئنها برفق:

ـ ماتخافيش. أنا معاكي. مش هأسيبك أبداً.

أكمل بكاء أمها هيكل حدسها بأن حالتها خطرة:

ـ هل سأموت؟

الطعم الغريب لم يفارق فمها، لا تعرف تماماً ما الذي فقدته، لكنها أحست بأطرافها متيبسة ولا تنتمي لها.

ـ أبهذه السرعة؟

ـ لكنت صرت شابة جميلة بعد عدة سنوات!

لكنت تزوجت من هذا الذي يقف بجواري الآن ويعدني بألا يتركني، لكنت أنجبت له طفلاً مع كل اكتمال للبدر !

لكنت فعلت أشياء كثيرة أخرى....

لم ترَ قطرات الدم وهي تهبط فوق الكليم لأن شعاع الشمس مازال يمنعها من فتح عينيها، ورغم ذلك فقد رأت....

رأت سعيها الدءوب للتقرب من أمها المشغولة:

ـ أختك في الابتدائية.

fb/mashro3pdf

فرحتْ عندما نجحت البكرية لأنها بعد عامين ستصبح في الابتدائية مثلها، بل ستعصر نفسها في المذاكرة لتكون درجاتها أفضل، لكن الأم انشغلت مجدداً:

ـ الإعدادي مرحلة جديدة.

البكرية فاتحة التجارب مع العالم ومفاجآته، ليس فقط الدراسة والمدرسة، فهناك قضية في اختيار الثياب التي تظهر الأنوثة الوليدة دون فجاجة، وهناك قصة حول كعوب الأحذية، ما يناسب منها وما لا يناسب، وأخرى حول إزالة الشعر الزائد، واختيار حقيبة اليد الحريمي التي تناسب كل طقم جديد، وما يصغر على البكرية من ثياب يذهب، بعد أن تكون موضته راحت، للوسطانية، كل هذا شيء وحمالات الصدر وحيرتها شيء آخر:

ـ عايزة واحدة.

ـ صدرك لسة صغير.

تحجرت الكلمات فوق لسانها ولم تجرؤ على أن تُكَذِّب أمها أمام ما تؤكده لها المرآة كل يوم.

أما آخر العنقود فمنذ ولادتها وهي مستحوذة على بقية الأم:

المغص، الانتفاخ، الحفاضات، الالتهابات، الإمساك، ثم إشارات جهازها العصبي مثل أول ابتسامة، أول خطوة، ثم التسنين، النوم، النمو... إلخ. أما ملابسها فجديدة دائماً لأن فارق العمر والحجم بينها وبين أختيها كبير.

إذن، آخر العنقود تأخذ حقها تماماً كالبكرية وتبقى الوسطانية مفعوصة بينهما...

fb/mashro3pdf

كانت مستعدة لفعل أي شيء يجعلها مرئية وموضعاً للاهتمام..

عندما تتعب الأم تحمل هي الغسيل وتنشره على الحبل، إذ ترفض الأم أن تشغل البكرية:

ـ غلبانة. عليها مذاكرة كتير.

ورغم آلام ظهرها من الانكفاء على الحبل، إلا أن أمها لم تعفها من التعليقات النقدية حول النشر.

عندما رفضت البكرية أن تحنّي للجارة العجوز شعرها الأشيب متحججة بالمذاكرة، عرضت هي على الجارة أن تقوم بالمهمة بدلاً من أختها، فما كان من الجارة إلا أن سخرت منها:

ـ عايزة تضيعيلي الشعرتين الباقيين يا مفعوصة انتِ

وبدلاً من أن تشكرها التفتت تدعو للبكرية بالتوفيق في الدراسة.

الضباب يغمر دماغها، فيما اختفى شعاع الشمس الذي كان يمنعها من الرؤية، فرأت..

رأت نساء يرتدين السواد ويجلسن بحجرة الصالون وبينهن أمها مكلومة وعاجزة عن التنفس.

رأت النعش يجري والجنازة تتقدم، رأت أمها تغرس ريحانة عند رأس القبر، رأت أول دودة تجترئ عليها، وراعيها عجزها عن نفضها بعيداً، وأدهشها سرعة استدعاء هذه الدودة لرفيقاتها "باقي الكتيبة"، حتى غطتها الدودات من أولها إلى آخرها، ومع أنها لم تحس بأي شيء إلا أن سخف الموقف ضايقها..

ـ كيف تتجرأن!؟ يا لكن من دودات سخيفات!

fb/mashro3pdf

ولابد أن أعواماً طويلة مرت لأن الطفلة التي تشبه البكرية تماماً، كأنها مستنسخة منها، كانت تحمل صورتها وتتأملها متسائلة:

ـــ من هي؟

ترمش عين البكرية عدة مرات قبل أن تجيبها:

ـــ خالتك الله يرحمها

ـــ كانت حلوة؟

ـــ كانت ملاك. كانت الأجمل والأذكى والألطف

رأت كل ذلك، لكنها لم تر الإبرة، بل أحست بوخزتهـا ففتحـت عينيها صائحة:

ـــ آااي! لأ. حقنة لأ.

لم تستطع "الفلفصة" من بين يديّ الطبيب العجوز المتجهم الـذي صاح:

ـــ كفاية دلع بقى.

استوقفته الأم:

ـــ نزفت كتير.

أجابها وهو يحكم ربط الضمادة على الرأس المصاب:

ـــ فروة الرأس تنزف كتير من غير خطر.

المهم تبطل شقاوة. مش كل مرة تسلم الجرة.

ضربتها الجارة خفيفاً على فخذها

ـــ قومي يا نصابة.

تجهمت البكرية وهي تلتفت مبتعدة:

ـــ عاجبك كده!! أديكي ضيعتي عليّ المحاضرة.

fb/mashro3pdf

آخر العنقود ضغطت أوزتها المطاطية فارتفع الصفير الحاد المزعج وهي تبتعد

وحدها أمها كانت تعاونها على الجلوس عندما تنشقت عميقاً ثم تركتها مسرعة:

ـ هه!! شوربة الخضار باينها اتحرقت.

اختفوا جميعاً، أما الشاب الذي وعدها ألا يتركها فلم تجد له أثراً

ـ من أين جاء؟ إلى أين ذهب؟

وحدها.. نهضت بتثاقل ونفضت ثيابها وانعدلت أمامها صورة آخر العنقود والبكرية، فكرت بوشاح أمها ولم تفعل شيئاً، ثم فكرت بشيء آخر:

ـ لمَ لم أ...

"استبعدت الكلمة التي كانت على طرف لسانها وهي تتذكر كتيبة الدودات السخيفات".. فعدلت من أفكارها:

ـ لمَ لم يصيبني أي مرض واضح، مؤثر و.. غير قاتل!!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٣- خيط ممدود

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الضوء باهر.. باهر، لا أتذكر إن كان ضوء الشمس أم مصباحاً ضخماً، الساحة أيضاً واسعة وموحشة كأني أراها للمرة الأولى، لكن ظل الولد كان أكبر منه وهو يعطيني ظهره ويعدو. أعدو، بكل طاقتي، وراءه، فأنا وحدي أحسست بحرقة قلب أمه منذ فارقها.

أمرق داخل أزقة وممرات ضيقة، تظهر على جانبيها أبواب، بعضها موصدة، وبعضها ينفتح وينصفق بعنف عند بلوغي إياها دون أن يطل منها أحد. العرق يغمر جسدي، ملحه يلهب لساني، ثوبي المبتل يلتصق بنهدي المنتفخين، وحذائي يوشك أن ينخلع من قدميّ المسرعتين.

يختفي الولد. أتوقف، ثم ألمح طرف ظله باتجاه طرقات أخرى أكثر غرابة، فأغير اتجاهي وأعاود العدو. يتوارى الظل فلا أتوقف.

يختفي الضوء الباهر فجأة، وتحل ظلمة كثيفة وأنا أجتاز الممرات الضيقة. أتحسس الجدران كي لا أصطدم بها. أعدو.. خائفة من فقد أثره، من الاصطدام بالجدران، من التيه، من السقوط والارتطام بالأرض، من انفتاح أحد الأبواب فجأة يطل منها شيء مجهول، من مباغتة الولد لي بإحدى ألاعيبه المدهشة....

كان صغيراً.. صغيراً عندما لفوه في الأقمطة البيضاء ووضعوه، بفرح، في المنخل الكبير الذي يخص الجدة العجوز ذات الوشم المميز فوق جبهتها. راحوا يهزون الغربال ويطيرونه في الهواء فتبتسم الجدة بأسى وتهتز الأرائك والوسائد وينتفض قلب أمه. همست بوجل:

ـ إنتظرته طويلاً.

fb/mashro3pdf

كانت رائحة المسك والزعفران تملأ الجو عندما أشاروا للمبخرة وأعطوه لها آمرين: خطي.

الأولة.. باسم الله

والتانية.. باسم الله

والتالتة.. لا حول ولا إلا

والخامسة.. حصنتك من كل مَن شافك ولا صلى

رشوا الملح ثم علقوا فوق قلبه خرزة زرقاء فبكى. ضمته وألقمته ثديها ومسدت بأناملها خده الطري وغنت:

نام نام وأنا أجيبلك جوزين حمام.

أغمض عينيه وابتسم فكبر خده.

يعود الضوء فجأة، لكنه ليس باهراً هذه المرة، بل شاحباً كضوء مصباح فلورسنت ضعيف أو كأول خيط من خيوط الفجر.

أرى أمي هناك.. بجلبابها المشغول بخيوط زاهية، وطرحتها البيضاء الملتفة حول وجهها وعنقها كهالة نور. أمي جالسة فوق عشب أزرق، وأنا.. "صغيرة"، رأسي نائمة في حجرها، وشعري الطويل ينسدل مفترشاً العشب. تبتسم وهي تجلسني برفق أمامها وتلملم شعري المهوش، وتضفره لي. تغني بصوت هادئ وهي تعقد ضفيرتي بشريط أزرق، ثم تضع رأسي، مجدداً، في حجرها وتهدهدني فينسدل جفناي. قبل أن أغفو تطالعني، من بين الشجيرات النضرة، عين الولد كبيرة لامعة، تحدق باتجاهي ثم تختبئ في تشابك الفروع. أنهض متجاهلة دهشة أمي. أتخابث عليها بغمغمات وهمية

fb/mashro3pdf

كي أهرع وراءه. يتوارى. أتلفت حائرة ثم ألمح طرف ظله باتجاهٍ آخر فأعدو دون أن أودع أمي.

تحت الظلال المتقطعة لشجرة لم تورق بعد، كان يقف الشيخ العجوز عندما حدق بخطوط كفه الصغيرة ثم رفع نحو أمه وجهاً خالياً من التعبير، ولم يفتح فمه إلا وهو يلتقط فراشة حمراء حطت فوق شعرها. يبتسم بما يشبه ابتسامة قديمة هامساً:

ـ الفراشة الحمراء أجمل الفراشات... لكن عمرها قصير !

وضع الفراشة في كفها فبقيت ساكنة بلا حراك.

يباغتني الولد بعيداً عن ظله. يحتضنني. يدي الصغيرة جداً عما هي عليه تحتضن يده الصغيرة. يبتسم الولد، فيكبر خده، يكبر الولد، وأنا.. "صغيرة.. صغيرة" أضع رأسه في حجري وأغني. أوصيه ألا يبكي كثيراً بعد موتي فينفجر في الضحك، ويضحكني معه.

الدخان يملأ الجو ويغطي وجوه الرجال، الذين انكفأوا يعالجون آثار الدمار الذي حل بالبلدة، بسناج أسود. أخبرني أحدهم أن الولد كان في حضن أمه قبيل ثوانٍ من اختفائه، دون أن يتوانى عن تحميلها مسئولية ما حدث. وحكى آخر عن انضمامه لسرب الفراشات الملونة التي أفزعها الضجيج والدخان ففرت بعيداً، وتهامس آخرون عن رجال المعاطف البيضاء الذين استماتوا في محاولة إنقاذه. يغز أحدهم قلبه بالإبر والعقاقير. يتألم الولد ويصغر خده.

fb/mashro3pdf

الألم أحسه في قلبي.. لماذا لا ينتبهون لصوتي؟ أخبروني أن أحدهم لمحه في مكان غير بعيد. أعدو، بكل قوتي وراءه. أود لو أضمد جراحه، أفتش عنه في العشب الأزرق، في غربال الجدة العجوز، في خيوط جلباب أمي، في أفرع الشجيرات التي احترقت قبل أن تورق، في لفائف صحف قديمة بقيت بعد زوال ممالكها، في كومة أحشاء منتزعة من أجسادها راقدة بجوار باب المشفى المتهدم، أفتش فلا أجده. أريد إعادته إلى حضن أمه. أريد ملامسة خده الطري.

كان في حضن أمه عندما انطلق الصفير، فاحتضنته أكثر. كانت تخاف عليه من الهواء الطائر ومن القلوب الحاقدة ومن كل من شافه ولا صلى. تخاف عليه من أزيز الطائرات وقعقعة المدافع ودوي الانفجارات، لذا خبأته بين نهديها وضمته أكثر.. أكثر، ربما، مما ينبغي، أو مما يمكنه أن يحتمل. أخبروني أنهم أفلتوه من حضنها بصعوبة...

عند حافة الرمال الصفراء يظهر الشيخ العجوز بوجه أكثر تجعيداً ولحية مبعثرة اتسخ بياضها بلون الرماد، يلملم بيديه المرتعشتين شعري المهوش ويضفره لي دون أن يبتسم ثم يعقد ضفيرتي بشريط أسود.

يشير لصخور بعيدة وصبارات وشواهد قبور صغيرة.. صغيرة، ثم يصيح وهو يدفعني بحسم:

ـ عودي.

أفكر بالولد... ثم ألتفت مخلفة له في أثري قطرات اللبن التي لم تجف من نهديّ بعد.. خيطاً ممدوداً فوق العشب الأزرق.

fb/mashro3pdf

٤-لا أحد يغضب من أميرة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أميرة خُلقت لتعيش أميرة وتموت أميرة، تقيم أسرتها سرادق عزائها بطول الشارع وعرضه، وتُفتح أبواب البيت السبعة لعزاء السيدات.

ـ البقاء لله

أعترف بأن دموعي تصبح شحيحة جداً في مثل هذه المواقف، لكني بالفعل بكيت لحظة أخبروني بموت أميرة...

تجري أمامي صاعدة الدرج وشعرها الطويل المفروق بمنتصف الرأس يحلق فوق كتفيها وظهرها وينطلق بجموح مع قفزاتها، وتركلني بقدمها الصغيرة كلما أوشكت على اللحاق بها، محافظة على بقاء المسافة بيني وبينها كافية للفوز الذي تعلنه بصيحة عالية حالما تصل لبسطة الشقة:

ـ أنا الأوولى.

أتوقف فوق الدرجة قبل الأخيرة وأصفق لها فيما يكون أثر ركلاتها في ساقي لم يتلاشَ بعد، لكني أنساه وأنا أتابع إيقاع ضحكاتها وصيحاتها فأفرح لفرحها بالفوز.. عليّ.

أميرة هي الأولى في كل شيء.. أول من يختطف بسكوتة الآيس كريم من يد البائع وهو يمدها نحونا بتشكيلة متعددة الألوان والطعوم، وأول من يركب حنطور المدرسة في الصباح، وحتى لو تأخرت فلا أحد يجترئ على الاقتراب من الموضع الي جعلته موضعها، لا أحد يقدر على زعل أميرة.

لا. ولا حتى صفاء التي كانت أول ما تظهر ـ بوجهها الخالي من التعبير وشفتيها الجافتين من تقشفها في الكلام وشعرها المشدود

fb/mashro3pdf

بقسوة في ضفيرتين طويلتين ــ تبادرها أميرة بتحريف اسمها "صفاء" صائحة بضحكتها المعهودة:

ــ صف..رااء. يا صفراء يا أم ضفاير.

وصفاء الطيبة ــ التي يفاجئها التعليق أو المقلب كل مرة كما لو كان لأول مرة، إلى حد أن يصفر وجهها بالفعل ــ تصمت طويلاً حتى نحسبها ستنفجر محتدة، لكنها تخالف توقعاتنا وتفاجئنا بانفجارها في الضحك فتثير إعجابنا بتعقلها، الذي لا يتجاوز بالطبع إعجابنا بأميرة.

أميرة أيضاً هي أول.. لا، ليس أول بل هي الوحيدة بيننا التي نجحت في أن تأكل عقل أبيها وتجعله يهديها ــ لنجاحها في الثانوية، رغم أنها أقلنا في المجموع ــ خاتماً ذهبياً بفص من الياقوت الأحمر، صغيراً وبديع التكوين وخليقاً بأنامل أميرة الدقيقة، ماجعله ملتصقاً بذاكرتي حتى الآن.

أميرة جميلة ونكية ومرحة وتنشر سجاياها فيمن حولها فيتاسى الجميع.. أشياءها الأخرى.

تجذب أباها من كمه في الشارع

ــ هاموت لو ماخدتش الفستان ده!

فيذعن لشغفها بالفستان الوردي رغم حرجه من إخوتها الأولاد الذين رضخوا لرغبته في التوفير وتنازلوا عن شراء ثياب جديدة للعيد. لكن حرجه لن يستمر طويلاً، فبمجرد أن تخرج أميرة الفستان من الورق وتلبسه وتدور تضحك وتغني تنقلب زمجرة إخوتها "المتوقعة" ضحكاً وتسامحاً ومباركة.

fb/mashro3pdf

بعد هذا العيد بعشرة أعوام ستموت أميرة، قبل أن تشيب برأسها شعرة واحدة، بعد معاناة مع المرض لا يطيقها بشر "على حد تعبير أحد إخوتها".

عذاب أميرة هو الذي أبكاني لا موتها، فأميرة، كما هي في ذهني أيام طفولتنا وصبانا، خلقت لتلعب وتفرح و.. تُجاب أوامرها.

ــ إتفضلي

ناولتني امرأة، تبدو إحدى القريبات، فنجان قهوة بكف ممتلئة بخواتم ذهبية كبيرة وفجة وقريبة الشبه بحشرات موشكة على الطيران، فأحكمت قبضتي على الفنجان وأنا أتراجع إلى ظهر الكرسي خوفاً من تحرك حشراتها.

ــ قهوة مرة.. ما كانت لتشربها أميرة.

حدثت نفسي وأنا أتأمل صورة زفافها البديعة على الحائط

ــ دوقي دي

تمتص الشوكولاتة بنهم، لكن على مهل، ثم تلعق أناملها كي لا تفلت ما علق بها، وبهذه الأنامل البنية تضع في فمي قطعة صغيرة جداً.. وهو أقصى ما لديها من كرم بخصوص الشوكولاتة !!

كانت تحب الأشياء الحلوة وتعشق أن تتشبث بما تحب....

ــ باحبه وهاتجوزه

حكت لي جارتنا القديمة عن أبيها الذي راح ينشال وينهبد:

ــ مفيهوش ميزة يا عديمة النظر.

ــ هاتجوزه يعني هاتجوزه.

ــ حتى لو هتموتي! لأ يعني لأ.

fb/mashro3pdf

والأب الذي توقع الجيران أن يحرمها من الميراث أو على الأقل يرفع يده من نفقات زيجة على غير هواه، ينتهي به الأمر وقد شرع ببناء شقة لأميرة وزوجها فوق شقته، كي لا تبتعد عنهم.. أميرة.. روح أمها وننوس عين أبيها، ووش السعد.. فقد أتت بعد سنوات طويلة من زواج مجدب ولحق بها نصف دستة من الصبيان، وسعة ــ غير متوقَعة ــ في الرزق، وفوق كل ذلك دلوعة إخوتها الخناشير.

تبقى لأميرة بعد زواجها نفس غرفتها القديمة بشقة أبيها ــ مع سرير إضافي لطفلها ــ ونفس "فوتيه" الأنتريه المواجه للتليفزيون، الموضع الذي لا يجرؤ أحد على التعدي عليه.. الفوتيه الذي يبدو أمامي شاغراً.

تلف أمها حلة المحشي وترص صواني الباشميل والرقاق، وتؤكل أميرة بيدها:

ــ بألف هنا. مطرح ما يسري يمري

كان لديّ فضول قوي بخصوصها يجعلني أتتبع أخبارها رغم مباعدة ظروف الحياة بيننا، وقبل سنوات عرفت من جارتنا القديمة بمرض أمها وعلمت أن هذا لم يؤثر في مكانة أميرة.

أميرة مازالت تترفع عن الوقوف في المطبخ لإعداد الطعام، فقط تأكله بدلال فيما تكون زوجة أخيها الكبير قد قضت النهار بطوله واقفة على قدميها لتعده.

ــ وعاملة إيه بعد ما اتوفت مامتها؟

ــ عادي. أصل مراة أخوها طيبة. طيبة جداً

fb/mashro3pdf

وبعدين ماحدش يقدر يزعل من أميرة

أعلق بخبث حذر:

ـ تبقى فعلاً طيبة جداً مراة أخوها

فتستطرد الجارة

ـ ما هي زميلتكم. صفاء. كانت معاكم زمـــان وبعـــدين نقلوا في .....

ـ صف...راء! ياه!

أيوة فعلاً طيبة. طيبة جداً.

أميرة سيدة البيت بمباركة أمها ثم يفرض الأمر الواقع نفسه، بعد موت الأم، على زوجة الأخ الطيبة التي انضمت للعائلـــة وصـــارت تنادي أميرة: يا عمتي. وهو تقليد ريفي قديم قـــد يثيـــر دهـــشة أو سخرية! لكنه يفرض نوعاً محدداً من العلاقة.

استمر احتضارها طويلاً، ذكروا أنها في أيامها الأخيـــرة كانـــت تزمجر وتصرخ في كل من يقترب منها ولو.. لخدمتها أو مساعدتها.

حكت إحدى عماتها للمعزيات عن خطوات تجهيزها للكفن قبيـــل الوفاة، بداية من قماشه الحنون ومساحته الزائدة عن المعتـــاد، مـــا يجعله ليس فقط سابغاً يخفي جميع البدن، بل "مبجحاً يأخـــذ اثنـــين معاها"، وفق تعبيرها، ومدللة على شدة حبها لأميرة أكدت أنها بخرته سبع مرات.

fb/mashro3pdf

نهضت العمة وابتعدت وظهرت امرأة أخرى، لم تجلس بمكان العمة الشاغر، بل اتجهت نحو فوتيه أميرة، الذي بدأ يهتز بمجرد جلوسها عليه كأنه على وشك الانهيار، ما اضطرها إلى الجلوس الحذر غير المستريح فبدا وجهها مصفراً. استغرقتُ دقيقتين في التحديق بوجهها كي أتأكد من أنها هي.. صفاء أو.. صفرااء، فبالإضافة لأثر السنين الطويلة بدت مختلفة وهي تغطي شعرها بطرحة طويلة سوداء.

توقعتُ من نظراتها الحيادية أنها لم تتعرف عليّ، وظللت أترقب فرصة مواتية كي أذكرها بنفسي.

ــ ارتاحت

قالتها باقتضاب، ثم صمتت طويلاً ثم بدأت تحكي ــ وهي تحرك عينيها ورأسها بحماس ملأ قسمات وجهها الذي كان قديماً خالياً من التعبير ــ كيف اضطرت إلى خلع ملابسها، لم تبقِ على جسدها سوى قميصها الداخلي، وكيف نزلت بكفيها وبكل طاقتها فوق جثمان أميرة بالماء والصابون، مبررة ذلك بطول فترة مرضها وعجزها عن الاستحمام، ورفضها مساعدة الآخرين بهذا الشأن.

أخذت، أخيراً، راحتها في الفوتيه واستبدلت قسماتُ وجهها الحماسَ بالزهو وهي تؤكد إصراراها على استعمال الكافور:

ــ تقبوا وتغطسوا وتجيبوهولي

مسهبة في وصف مزاياه للميت ومؤكدة تفانيها في تغسيل أميرة وتضفير شعرها وتبخيرها وتوضئتها على أكمل وجه وبإخلاص جعلها تدخل الكفن نظيفة بيضاء كالملائكة.

انتبهتْ فجأة للفنجان الممتلئ بيدي، فصاحت:

fb/mashro3pdf

ـ إشربي القهوة

إهتز الفنجان بيدي فيما راحت صورتها وهي منكفئة فوق جسد أميرة بكل.. طاااقتها !! تجمد الكلمات فوق لساني وتهز الفنجان أكثر.

ـ شكراً

قبل أن تسمعني التفتت لأخرى أصغر منها كانوا قد عرفوني، قبل دقائق، بأنها زوجة الأخ الصغير:

ـ روحي إعمليلها فنجان مظبوط.

قالتها بلهجة آمرة ووجه متورد وهي تشير بيدها إشارة من يعرف أن أمره سيطاع لا محالة، فظهر بإصبعها مع إشارتها خاتم أميرة الذهبي ذو الفص الياقوتي الأحمر.

تشاغلت بفتح حقيبتي كي لا تنتبه لتحديقي بيدها أو تسترسل في محادثتي، ولما عادت زوجة الأخ الصغير وقدمت لي القهوة ترددت قليلاً في قبولها فبادرتني وهي تبتسم ابتسامة واسعة:

ـ إشربي. ولاّ عايزة تزعليني منك؟

ومع ابتسامتها سقطت الطرحة قليلاً عن شعرها، لم يكن مضفراً مثلما كانت في الماضي، بل كان مفرودا فوق كتفيها وظهرها ومفروقاً بمنتصف الرأس.

fb/mashro3pdf

صحت بوجل وأنا ألتقط الفنجان وأتجنب النظر لها كي لا تتذكرني:

ـ لا لأ. إعملي معروف.. ماتزعليش مني.

سكبت القهوة المرة في جوفي دفعة واحدة دون أن أنظر نحوها ثم أسرعت نحو الباب.

fb/mashro3pdf

٥- نصف ضوء

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

يبدو أن شهراً قد انقضى، خمنت هذا لأن القمر إكتملت استدارته وصار بدراً، وهو مالا يحدث سوى ليلة واحدة كل شهر، تكثر فيها أمي من الصلاة والتسبيح وتطيل الدعاء. شهر انقضى منذ انغلق باب الزريبة القبلية بمزلاج نحاسي متين، هذا ما أحاول إفهامه ل " ساره" التي تلح في مطالبتي بالذهاب إلى هناك للعب الحجلة، ولا تريد أن تفهم أن هذا صار مستحيلاً. يبدو أنها لا تفهم أشياء أخرى كثيرة، حتى لو كانت بسيطة، فالساذجة، كذلك، تتخيل أن القمر دائرة كاملة طوال الوقت لكن جبلاً ضخماً يأتي ويسير أمامه فيهبط ظله فوق أعيننا ويجعلنا لا نرى منه سوى جزء هلالي صغير حاجباً بقيته، ومع كل ليلة يتحرك الجبل خطوة فيكبر الجزء المرئي حتى تكتمل الرؤية لدائرة القمر باختفاء الجبل ليلة واحدة، يعود بعدها في الليلة التالية ليكرر رحلته المدهشة. هذه إحدى تخاريف ساره التي تسليني رغم أنها مجرد تخاريف، ومهما يكن من أمرٍ فهي أختي الصغيرة، هذا كل شيء.

في المرات الثلاث التي إنتفخ فيها بطن أمي كان الفرح يرفرف في دارنا فتبتسم رغم معاناتها من القيء المتكرر وزوغان الروح معظم الوقت، ما حملني عناء كبيراً في المرة الأخيرة وحدها، فقبلها كنت أصغر من أن أفعل شيئاً مفيداً لأي أحد، أو شيئاً يخفف عنها، وحدها جدتي كانت تعصر لها فصوص البرتقال في فمها ببطء وتمسح عرقها وتسوي شعرها وتحمل القيروانة الممتلئة بالقيء لتفرغها ثم تغسلها وتعيدها إلى موضعها أسفل السرير من جهة

fb/mashro3pdf

الرأس بحيث لا تحتاج أمي، المستلقية في حال متأرجحة بين الصحو والنوم، لأكثر من إلتفاتة صغيرة لتفريغ ما يثقل جوفها، لكن جدتي كانت قد شاخت وعجزت عن الحركة وأنا كنت قد كبرت وأكملت عامي الخامس في حبل أمي الأخير، ما يعني أن متابعة القيروانة صارت من نصيبي. أبي هو الآخر لم ينجُ من العناء لكن كان بهونه فرحه بالوليد المنتظر الذي كان يقسم أن يذبح جدْياً كبيراً لا يقل عرض إليته عن ثلاثة أشبار ليقيم عقيقة لا مثيل لها فور مولده، يقسم أيضاً أن يسميه "صادق" على اسم جدي بعد أن أكدت صورة الطبيب أنه ولد.

لو منحني الله أخاً، لربما ماصارت ساره تعني لي ما تعنيه الآن.

أراقب الكرمشات التي كست وجه أبي بعد موت أخيه "عمي يوسف". أراه يجذب نفساً عميقاً من "الجوزة" ويحبسه في صدره ثم ينفث دخاناً كثيفاً حاراً ولا يلبث يسعل ويبصق ثم يصفق بكفيه بأسف متمتماً:

ـ لا إله إلا الله.

تظهر أمي مقرفصة على الأرض بجواره، تمد يدها وتربت كتفه مواسية :

ـ مقدر ومكتوب.

ثم تتنهد وتربع ذراعيها وتترك رأسها تسقط بينهما. يطول الصمت بينهما ولا يرياني فيما أنا أراهما هذه المرة أيضاً، هذه المرة رأتهما ساره معي، لكن ليس في المرة السابقة.

fb/mashro3pdf

نفس العبارة كانت تتمتم بها أمي فيما كان هو يتلقى العزاء من أهل الكَفر، قلة من أهل الكَفر هم من أتوا لتعزيته، أتوا برءوس مطأطئة كأنها مبطوحة على جانبها بحجر، ما جعل الوجوه تشيح بعيداً وهي تنطق بعبارات العزاء، أبي أيضاً كان يتحرك برأس مبطوح أو موشك على الانفجار، ومازال على نفس هذه الحال بعد شهر كامل، ومع ذلك لم يقصر يوماً واحداً في رعاية أرضنا.

لا يحلو لساره التمادى في تخاريفها سوى أثناء الليل، بعد انغلاق باب حجرة أبي وأمي إنغلاقاً تاماً لا مجرد مواربة كما صار يحدث أغلب النهارات. في الليل، حيث لا حس ولا خبر، لا شيء سوى سوانا.. أنا وهي، تحكي عن الشمس والقمر اللذين كانا فيما مضى أختاً وأخاً ثم حُكم عليهما بالفراق الأبدي فلا يظهر أحدهما إلا بعد غياب الآخر، وعن نبي الله سليمان الذي كان يكلم النمل والنحل فنصبوه أخاً أكبر لهم، يفصل بينهم في المنازعات، كما لا يصح زواج أي زوج منهم إلا بمباركته..

ـ يحط خاتمه فوق منخار النملة من دول و...

ـ بقى النملة لها منخار يا بت يا هبلة!!

بدك تفتري على النبي كمان!!

تجعلني أضحك من قلبي، بل وتدفعني إلى مجاراتها في حكاياها ومحاولة إدهاشها وإضحاكها كما تفعل معي، إذ تنقطع أنفاسي وأكاد أفطس من الضحك عليها مرة تلو الأخرى. وحده الضحك أنقذني من الحزن الذي تملكني بعدما فعلته خالة "خيرية" معي..

fb/mashro3pdf

كنت ألتقيها كل ليلة بعد أن ينهد حيلي من اللعب مع عيال الكفر. أمر أثناء عودتي عليها جالسة على عتبة دارها فتنهض مبتسمة وتمد لي يدها بقلة الماء المطعم بماء الزهر الذي لا تسمح لسواي بالشرب منه، ثم تدعوني للدخول للمندرة لنشاهد المسلسل التليفزيوني معـاً، وبمحبة تصر أن تغسل وجهي ويديّ ثم تجلسني بجوارهـا وتأخـذ رأسي في حضنها وتشرع تفلي شعري برفق واهتمام لتتأكد من خلوه من القمل مع كل هذا الغبار والعرق. تجعلني أحـس أنهـا تحبنـي كإبنتها تماماً، رغم أن ليس لديها أبناء، كما كان حنانها يعوضني عن حنان أمي التي غرقت في الصمت بعدما خـذلتها بطنهـا. مـؤخرا صارت تلقاني بفتور وترد سلامي دون أن تنظر في عينـي، وبـلا اهتمام ولا تفكر حتى أن تتحرك من جلـستها، ولـم تعـرف كـم جرحتني، بعد ذلك، وهي تقدمني لسلفتها التي قدمت لزيارتها:

ـ بنت محمد أبو صادق

تشهق المرأة وينقطع حبل كلامها من منتصفه:

ـ هه! ....

لم أبالِ بشقهة تلك المرأة، لكن تجاهل خالة خيريـة هـو الـذي أستوقفني..

بنت محمد أبو صادق! هل نسيت إسمي!؟ هل أصابها نفس الغباء الذي أصاب العيال الذين كنت ألعب كل ليلة معهم؟ إذ صاروا كلهـم فجأة وراءهم واجبات مدرسية لم ينتهوا منها تمنعهم من اللعب معي! قال هذا أحدهم وهو يدخل داره ويغلق الباب أمامي، الباقون أغلقـوا الباب دون أن يقولوا شيئاً، فقط كانوا يلوحون بالكتب فـي أيـديهم.

fb/mashro3pdf

أغبياء أو أولاد أبالسة! ما من فرق، وعلى أية حال فسارة تكفينـــي وتغنيني. ولو أنها صغيرة.. صغيرة جداً

لم يكن عمي يوسف يغضب عندما أمد يدي وأزيح خصلة شعره الناعمة المتهدلة فوق عينه للوراء، ولا عندما أناديه باسمه دون لقب: عمي، رغم شجب أبي لي كان يضحك ويستمر بمـــداعبتي فأســـتمر بشقاوتي دون أن تفوتني أية التفاتة منه، أما حكاياته عـــن الـــشوارع المزدحمة بالمحلات ذات الواجهـــات الزجاجيـــة المـــضيئة وعـــن المنتزهات المريحة الواسعة التي يقضي بها هناك ســـاعات فراغـــه فكانت تلهب مخيلتي وتشغلني عن تناول طعامي فيما هو يلتهم نصيبه من الديك المحمر الذي تعده أمي خصيصاً له بناء على توصية أبي. أنهض وراءه ما إن ينتهي من أكله، شاكراً أمي، كي أصب عليه ماء الإبريق ليغسل يديه فيما يكون مسترسلاً في وصف الميـــادين التـــي تتوسطها نوافير تضخ الماء العذب بلا توقف، مشكّلة مـــع الزهـــور النادرة المحيطة بها لوحات فنية بديعة، ومنتزهـــاً مجانيـــاً. أصـــغي بشغف فيما يكون أبي قد غط في النوم متوســـداً ذراعـــه أو جلبابـــه القديم، ومرسلاً شخيراً منتظماً وأليفاً مازال يـــشكل بـــذهني خلفيـــة ملازمة لحكايات يوسف. من المكان الآخر حيث كان يعمل ويعـــيش كان يأتيني في كل زيارة بشيء ولو بسيط، مرة أتاني بعلبة ممتلئـــة بفقاعات الصابون مثبت في غطائها من الداخل حلقة لإطلاقها، كانت مفاجأة لي ولكل الصغار هنا، لذا التموا حولي يجربون الـــنفخ فـــي الحلقة ويسرعون للحاق بالفقاعات تحركها الريح بكـــل إتجـــاه. الآن

fb/mashro3pdf

صاروا أغبياء، يرفضون اللعب معي ويقعدون لحل الواجبات رغم أن الكتب لم تزدد حجماً أو عدداً!

مرة أخرى أعطاني كرة مطاطية، كان يطلق عليها "اليويو"، ما ان أمسكت طرفه بيدي حتى استرسل في الهبوط والصعود دون هوادة، كنت أتعجب من حركته المستمرة. سألت أبي إن كان اليويو أحد عجائب الدنيا السبع؟ إبتسم بإشفاق، ووعدني بأخذي لزيارة الأهرامات. رمقته أمي مندهشة ففهمت أنها تشك في قدرته أو رغبته في الابتعاد عن الأرض، ولو ليومٍ واحد.

ـ أبوكي مزروع هنا.

هذا ما كانت تجيبني به حين أسألها بشغف:

ـ لماذا لا نذهب ونعيش حيث يعيش عمي يوسف؟

هدايا يوسف المدهشة التي عززت مكانتي بين العيال كانت تثير إستنكار أمي فتبرطم رافعة حاجبيها:

ـ جاي يضحك علينا بديّ!

وتزداد برطمتها عندما يعطيه أبي المعلوم:

ـ ناس تشقى وتعزق وتشق الأرض وناس تلهف ع الجاهز!

فأحدس أنها تقدر أن أبي يعطيه أكثر مما يستحق. عن طيب خاطر يعطي الأخ الكبير لأخيه الصغير.

تكبر بطن أمي بالتدريج فأصفق فوقها كل يوم فينهرني أبي:

ـ بشويش على أخوكي الصغير يا بِه

fb/mashro3pdf

وتحدثني أمي، وهي تلضم خيوط القطن الملونة في الإبرة لتشتغل رسوماً فوق صدريات وحفاظات صغيرة جداً، عن أخي الذي سأحبه وسيحبني، وسيكبر ويلعب معي ويكبر ليصبح حاميَ وسندي وحامي أرضنا. أنام وأحلم بالصغير الذي سأترك له مكاناً بفراشي، وأصحو من عز النوم لأهدهده وأحنو عليه كأني أمه.

ويأتي أخي قبل الأوان.. بعد صراخ أمي وآلامها المبرحة يأتي أخي قطعة دم ناشف ملفوفة في خرقة قماش قديمة ترفض أمي أن ألمسها لكنها تصر على الصلاة عليه ودفنه في مدافن الكَفر وفقاً للشرع لأنه.. كانت فيه روح، تصر أيضاً أن ندفن معه "خلاصه" ولا نلقيه في الهويس كما تفعل نساء الكفر انصياعاً لأمر "أم شعبان" الداية.

تؤكد بدمع عينيها أنه ملاك وأنها ستدخل الجنة على حسه، هذا ما ذكرته وقتها، وفي الأيام التالية راحت تترحم عليه بأسف:

ــ مالناش نصيب فيه !

وتجيبني حين أسألها عن معنى ذلك، بأن أبواب السماء كانت مغلقة فلم يسمع الله دعاءها. أفكر في السماء وأبوابها وفي خلاص أخي وجنة أمي. أحكي لسارة عن تلك الأيام وأشاطرها حيرتي وتساؤلي ونحن نلتقط ثمار المانجو من أفرع الشجرة:

ــ كيف يمكن لأمي أن تتمناه وتحبه كل هذا الحب ومع ذلك يلفظ جوفها كل ما يصله من طعام أو شراب حتى يموت أخي من الجوع !؟

fb/mashro3pdf

تبتسم دون أن تفتح فمها وهي تعيد الثمرة في يدي مدعية أنها لم تنضج بعد. أعلمها كيف تكمرها في الردة حتى تنضج. تسألني بفضول:

ـ نكمرها يعني ندفنها؟

تتملكني الحيرة.

سألت أمي يوماً عما سيحدث لقطعة الدم التي كانت ستصبح أخي بعد أن دفناها في باطن الأرض فانقبض وجهها ولم تجب، وانحنت، بوهن، تكبش حزماً من القش وراحت تكورها في يدها وفيما بعد صنعت من هذه الكريات دمى متفاوتة الأحجام والهيئات كي تلهيني بها عنها.

مات عمي يوسف وبكاه أبي أكثر مما بكى أخي الذي كان سيصبح سندي وحامي أرضنا....

النوم الليلة يبدو بعيداً. ساره لا تكف عن الثرثرة، حتى دون أن تفتح فمها. أشارت إلى قرطيّ الذهبيين اللامعين متسائلة فأجبتها:

ـ عشان يعرفوا إني بنت.

البنت بيعرفوها بدول.

أظهرت ضحكتها الماجنة وهي تحرك رأسها نافية ثم أشارت إلى فخذيها فنهرتها ضاحكة:

ـ إلتمي يا بِه.

سألتني بخبث:

ـ هل الأولاد لهم مثل ما للبنات؟

fb/mashro3pdf

قضم ضحكتي رنين السؤال وفكرت بأني لا أعرف، لم يعد قد تشكل بعد حين فقدته.

تدثر أمي جسد أبي المرتعش بالأغطية وهي تبسمل وتحوقل، ثم تهدهده مواسية

ـ أمر الله ياخويا.

يهمس أبي، وهو نصف متيقظ، بصوت مخنوق ثم يخبط يده في الحيط:

ـ إزاي ده حصل؟

أحدق فيه غير مصدقة أنه أبي وأن هذه الصيحة التي أيقظتني من عز النوم صدرت عنه !

الحلم هو رؤية طيبة من صنع الملائكة أما الكابوس فحلم شرير من صنع الشيطان.. هذه إحدى تخاريف ساره التي اضطررت لتصديقها، رغم أنها أسكنتني بالتساؤل:

ـ لماذا يلاحق الشيطان أبي هذه الأيام فيجعله يفز من قلب نومه مذعوراً؟

ينهض من فراشه ويسير، وهو لم يصحُ بعد، في فسحة الحوش رواحاً وإياباً فتظهر كوابيسه وهي ترفرف من حوله بأجنحة سوداء. تتأمله أمي ساهمة وتضيف لصمتها سبباً جديداً.

أعرف أن الموتي لا يضحكون لكن يصعب عليّ تخيل يوسف بدون الضحكة التي تملأ وجهه، فتسيل فيها ملامحه فوق بعضها

fb/mashro3pdf

ككتلة واحدة، فرغم صخبها، كانت تشع من حولي إحساساً بالطمأنينة من حولي:

ـــ هل الضحكة تدفن مع صاحبها؟ أم إلى أين تذهب؟

سذاجة ساره التي تخترع لي كل لحظة أسئلة عجيبة، لم أحكِ عنها ليوسف لكني حكيت كل شيء عنه لساره، عن اليوم الذي ركبت وراءه ظهر الحمار. كنت فرحة بدلدلة ساقيّ حول الحمار ومتشبثة بظهر يوسف وخائفة أن يرانا أبي لأنه يرفض أن يركب أحد الحمار:

ـــ دِه عضمة كبيرة. الرحمة حلوة. كفاية عليه حمولة البرسيم.

حتى شكائر التبن والتقاوي والسماد والكيماوي يحملها أبي على كتفيه كي لا يُتعب الحمار.

ظهر أبي أمامنا فجأة، لكن عكس ما حسبت ما إن ضحك يوسف حتى ابتسم ولم يقل شيئاً.

حكيت لسارة عن المرة الأخيرة التي رأيته فيها. كنت عائدة من عند خالة خيرية وما أن خطوت داخل الدار حتى سمعت صوته وصوت أبي عاليين ومختلطين. أمكنني أن أميز من زعيقهما بعض الكلمات: نصيبي في الأرض، شقة تمليك، وحفل زواج. اندهشت أن يثير أي شيء في الدنيا مشكلة بين أبي وبين يوسف، وفهمت أن أمي تحاول تهدئتهما. اندهشت أكثر عندما تقدمتُ واقتربت منهم فلم يقطع يوسف كلامه، لم يأخذني في حضنه كما كان يفعل، بعد برهة توقف عن الكلام وسألني عن حالي دون أن يبتسم. سارعت أمي تأمرني بدخول غرفتي فأطعتها ومكثت وحدي بعض الوقت وعندما خرجت

fb/mashro3pdf

لم أجدهما. أخبرتني أمي أنهما خرجا، وفي الليل عاد أبي وحده. في الأيام التالية بدأت ألحظ التجهم بوجه أبي حينما تخبره أمي أنها علمت من الأهالي بمرور أخيه بالكَفر دون أن يمر علينا.

ـ ده حقه ياخويا مهمن كان.

تقول أمي فيضرب أبي بكفه ظهر الحائط:

ـ طب يستنظر لما نجمع المحصول وأعرف أتصرف.

طلبت من أمي أن تفهمني سبب المشكلة فأخبرتني أن ما تراه عينا أحدهما يختلف عما تراه عينا الآخر. حسبتْ أنها أفهمتني، فيما كانت قد عقدت الأمر لي أكثر. طلبت منها أن تفسر أكثر، كانت قد سبقتني إلى صمتها. حملت السطل الفارغ وسارت بوجوم نحو الزريبة، ولم يتبقَ لي سوى إحساس غير مفهوم بالغضب من الأرض ومن عروس يوسف معاً.

كان القمر بدراً في الليلة التي مات فيها. قمت من عز النوم وكي لا تغضب أمي مشيت على أطراف أصابعي لكني لم أجد أحداً بالبيت ولا بالزريبة، انحرفت باتجاه الزريبة القبلية المهجورة التي كانت أمي تسمح لي أحياناً برسم مربعات كبيرة فوق أرضيتها الواسعة للحجل فوقها. كان الباب مواراً فتسحبت. عند المدخل لمحت أمي بعيداً بالجهة الأخرى، خفت أن تراني فاختبأت وراء الجدار، رأيتها تنزع غطاء صفيحة الجاز وتسكب محتواها فوق الجلباب الملقى على الأرض. جلباب أبي الذي بدا مبرقشاً ببقع من الدم حملته أمي وألقته

fb/mashro3pdf

في الحفرة التي كانت أيام جدي عين ماء ثم جفت. أشعلت عود ثقاب ورمته باتجاهه فاندلعت النار وظهرت ألسنتها عند فوهة الحفرة. من مخبئي كنت أراهما ولا يرياني. وقف أبي محنيّ الظهر، شبه عارٍ، يراقب النار ويرتجف، بدا في هذه اللحظة أقصر قامة وأنحف عوداً من المعتاد. في اليوم التالي قادني فضولي للزريبة القبلية فوجدت بابها مغلقاً بمزلاج نحاسي متين، عزلها عن بقية الدار. بعد أيام من العزاء بدأت ألاحظ غباء العيال.

القمر الليلة بدر. شهر انقضى منذ اندق المزلاج الذي لم أسأل أمي عمن دقه؟ أو لماذا دقه؟ أخبرت ساره أن المندرة هي أيضاً لم تنفتح في الشهر الأخير، فقط لأن.. لم يأتِ أحد من أقاربنا وأصحاب أبي الذين كانوا يأتون للسهر عندنا في أغلب الليالي. توقف رجع ضحكاتهم الليلية في المندرة، توقفت عبارات الهزار والقفشات المباغتة والحكايات المدهشة والإغفاءات الفجائية التي كانت تخطف الواحد منهم على حين غرة ثم صحوه على رنين الضحكات.. توقفوا جميعاً عن زيارتنا، مع أنه ما من مزلاج اندق فوق باب المندرة. وحتى عندما يمر الواحد منهم علينا فإنه يلقي التحية باقتضاب وبرأس مائل ثم يسرع الخطى مبتعداً.

ابتسمت ساره تلح عليّ بتعويضها عن لعب الحجلة بالمزيد من الحكايات، تثاءبتُ بضجر فنظرت لي بغيظ. تمطيت في الفراش متعبة، تهاجمني الحاجة للنوم، لكن ساره التي تكره النوم كرهها للعمى تصر على استفزازي ولو بابتداع المزيد تخاريف بغيضة...

fb/mashro3pdf

راحت تحكي عن قابيل وهابيل فأحسست برأسي تتمدد. صرخت فيها:

ـ إنكتمي يا غبية

استطردت في الحكي، ببرود، عن قابيل الذي قتل أخاه في مشاجرة حامية من أجل الأرض، وعن الأهالي الذي يعرفون ما حدث ويدعون أنهم لا يعرفون. هذه الغبية لا تريد أن تصدق أن يوسف نفسه أكد لرجال التحقيقات، قبيل لحظات من مفارقته للحياة، أن إصابته جاءت حادثاً غير مقصود. كان أبي غاضباً بعدما علم عن موظف المساحة الذي أتى به يوسف لقياس الأرض. كان يوسف غاضباً هو الآخر، رجع بظهره للوراء فوقع وارتطمت رأسه بجذع النخلة. هذا ما سمعت أمي تقوله. لم يدفعه أحد. ما من أخ يفعل هذا بأخيه مهما غضب! صاحت ساره وهي تقفز فوق رأسي:

ـ قابيل قتل هابيل

استبد بي الغضب فجريت خارج الغرفة وأحضرت صفيحة الجاز ونزعت غطاءها ثم أمسكت بعود ثقاب. عود الثقاب مازال بيدي، لكني.. أتردد في إشعاله، ساره أمامي خائفة ولا تكف عن البكاء. أنظر في عينيها فتهتز يدي، أخاف. بقيتُ لحظات مسمرة في مكاني، تحركت أخيراً وألقيت بكل ما بيدي خارج غرفتنا، ثم عدت واقتربت من ساره. حاولت مصالحتها فلم أفلح. تركتها وجريت بحثاً عن أمي وقد تملكني العزم على مطالبتها بنزع المزلاج كي أحقق أمنية ساره.

ثمة ضوء شحيح راح يتسلل من خصاص الشيش متكسراً فوق سجادة الصلاة حيث وجدت أمي ساجدة تهمس بأدعيتها وتستعيذ من

fb/mashro3pdf

الشيطان الرجيم كما تفعل عادة عند اكتمال القمر، متحسبة للأشياء السيئة التي يمكن أن تحدث، فقد أخبرتني، قديماً ــ أيام كانت تتكلم معي ــ عن أخي الذي سال من بين فخذيها في ليلة كهذه، كما ذكرت مراراً ما حكته لها أمها وجدتها.. عن النهر الذي فاض حتى خرج عن مجراه وأغرق قرية كاملة في مثل هذه الليلة، وعن البقرة "العشر" التي مسها القمر بجنونه فركضت، دون هوادة، حتى قذفت بنفسها في الهويس. حكايات أمي المدهشة توقفت منذ فترة طويلة، لكن مخاوفها لم تكف عن مشاكستي. تذكرت هذا وأنا واقفة بجوارها، انتظرتُ حتى انتهتْ وصارحتها بمطلبي، ولدهشتي لم تقل شيئاً يعني الموافقة أو الرفض، بل حدقت بي مستنكرة:

ــ ساره هتلعب حجلة!؟

أدهشني سؤالها. نهضتْ وأحضرت الدمى التي صنعتها قديما لأجلي ووضعتهم في حضني.

أخبرتني أنها قصت نصف متر من ثوب الحرير المشجر وحاكت منه فستاناً منفوشاً وطويلاً لدمية كبيرة وضعها أبي بجواري على السرير لأكف عن الحزن على أخي الذي لن أهدهده وهو نائم بجواري، لكني رفضتها في ذلك الوقت، ثم تقبلتها وتشبثت بها مؤخراً. ذكرت بأسى أنها لا تفهم ما الذي فعل بي ذلك! كنت ماأزال أحدق بها ولا أفهمها حين فاجأتني بصياحها:

ــ سارة عروسة قش. إفهمي بقى.

ثم تركتني بذهولي وابتعدت، فيما كان ضياء الفجر قد أوشك على البزوغ.

fb/mashro3pdf

*القسم الثاني:

كانوا ومايزالون:

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

١ –قدماه صغيرتان وجميلتان

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جلستُ تحت مظلة دائرية متسعة فوق الممشى المطل على البحر، ووضعتُ حقيبتي الجديدة بيني وبين "سعدية". كان ذلك في الأسبوع الماضي، في صباحٍ مشمس بعد ليلةٍ خماسينية عاصفة.

كان البحر لا يزال هائجاً، وحركة المارة من حولنا نادرة، والصمت لا يقطعه سوى هدير الموجات المتلاحقة.

بعد دقائق قليلة سمعنا صخباً ولغط أطفال، وظهرت من بعيد، امرأة تصطحب أطفالها، ولما اقتربت أمكنني أن أرى أنهم أربعة أطفال، كانت تحمل أصغرهم على كتفها فيما كان يتبعها الثلاثة الآخرون بالترتيب التنازلي لأطوالهم المتلاحقة. نظرت نحوي بطرف عينها ثم خطت بأولادها فصاروا معنا تحت المظلة. جلست قبالتي وهي تلقي عليّ تحية قصيرة.

أنزلتْ الصغير عن كتفها وأجلسته على المقعد ثم التفتت نحو إخوته الذين تبعوها نحو السور الذي يفصل المظلة عن البحر وبدأت تبدل بعض القطع من ثيابهم التي بدت مبللة.

انتقلتْ سعدية بحركة تلقائية لجوار الصغير خوفاً من أن يهوي، وبدأت تداعبه فيما انفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ هادئة.

حدقت بي الأم طويلاً وأخبرتني أنهم بكَوا حين رأوا البحر فتركتهم ينزلونه رغم أن الجو مازال بارداً ورغم أنها لم ترتب نفسها وتأتي لهم بغياراتٍ كافية.

أخذتْ تجفف سيقانهم بقطعة ملابس صغيرة، أخرجتها من حقيبتها القديمة المكرمشة، بينما بدأ الصغير يحاول الوقوف مسنداً مرفقيه على ظهر المقعد، وهو ينقل نظراته بيني وبين سعدية مرتاباً.

fb/mashro3pdf

لم أنتبه لملامح أمه إلا حين تأملته فبهرني جماله. عينان كبيرتان في وجه مثل قمر صغير، مثل دمية رُسمت ملامحها ببراعة، بل أعجوبة الدمى، دمية حية، كل يناعة الحياة، فوضى النظرات والحركات واللفتات والإيماءات. بدا مختلفاً تماماً عن أمه التي غطت ملامحها طبقات ثقيلة من الدهن والتشققات والخطوط الداكنة.

أربعة أطفال متقاربون جداً في العمر.. " لابد أنها عانت كثيراً ".

تركتُ الكبار جالسين على السور تحت الشمس وجلستُ بجوار الصغير من الجهة الأخرى، كان مازال يحدق بنا، لكن نظرته لانت وبدأت ابتسامته تبين.

أخبرتني وهي تضحك أنها ستترك إخوته للشمس، عقاباً لهم على إصرارهم على اقتحام البحر دون أن ترتب هي نفسها، أخبرتني مرة أخرى أنها لم تحضر مناشف ولا غيارات.

لم أكن أصغي إليها تماماً لأن عينيّ كانتا تتابعان الصغير...

كان يرتدي "شورت" أحمر ويسقط فوق عينيه شعر بني ناعم غزير فيما راحت تملأ وجهه شيئاً فشيئاً ابتسامة جميلة، لم ترها أمه التي كانت تحدثني.

أخبرتني وهي تتأمل ملابسي وحقيبتي اللامعة أن عاصفة اليوم الفائت غبَّرت غسيلها، وأن هذا ما جعلها تقصر في الإتيان بغيارات ومناشف كافية.

لم أكن أجيبها سوى بإيماءاتٍ قصيرة من قبيل " آه.. نعم.. فعلاً " حين فاجأنا الصغير بإطلاق أصواتٍ صاخبة.. في محاولة بدائية للكلام، ومع ارتفاع صوته وعمق تنفسه للهواء المالح سال أنفه، فتحت أمه حقيبتها وتظاهرت بأنها تبحث عن مناديل ورقية ثم رفعت

fb/mashro3pdf

رأسها ما يعني أنها لم تجد، وقد بدا لي أنها كانت تعلم بذلك مسبقاً. كان معي الكثير منها لكني لم أهتم بإعطائها، كما أن الصغير لم يقلل سيلان أنفه من عذوبته، لكن أمه لم ترَ ذلك.

التوت شفتاها وأنفها وهي منحنية، تمسح أنفه بنفس قطعة الملابس القديمة التي استعملتها قبل دقائق لتجفيف اخوته، ولما مست يدها قدميه الحافيتين ضحك صاخباً.

كانت قدماه صغيرتين وجميلتين، تشفان عن حمرة الدم، لكنها ليست حمرة داكنة، بل وردية ساحرة، ويبدو أن ذلك ما رأته سعدية أيضاً، إذ لاحظت أن مداعباتها له دخلت مرحلة جديدة مع اكتشاف قدميه... بدأت تحرك أناملها نحوهما مثل دواب صغيرة:

حادي بادي كرنب زبادي

سيدي محمد البغدادي

شاله.. حطه كله على دي

فراح الصغير يجفل ويكمش قدميه بالقدر البسيط الذي يستطيعه، ثم يتركهما منفجراً في الضحك، حالما تسحب سعدية دوابها الصغيرة للوراء.

التوى أنف أمه أكثر، كاد يطال شفتيها وانعقد جبينها أيضاً وهي تؤكد لي أن لديه حذاءً، لكنها نسيته في البيت، لأن اصطحاب أربعة أطفال يسبب ارتباكاً ونسياناً.

لاحظتُ أني لم أخفف عنها كثيراً حين قلت: شيء طبيعي. إذ ظلت تقاسيم وجهها متوترة، فيما أضاء وجه سعدية بألق مثير وهي تتبادل أدوار اللعب مع الصغير وبابتسامة لم أعرف حتى تلك اللحظة أنها تمتلكها، وعلت ضحكاتهما سوياً.

fb/mashro3pdf

نظرتُ للمرأة وأدركت أنها لا تسمع ضحكاتهما، إنتظرت حتى التفتت نحوي وأومأت لها برأسي على سبيل التحية وأنا أنهض وأمشي فتبعتني سعدية بسرعة.. لم تفصلني عنها سوى بضع خطوات.

لكني لم أنتبه إلا الآن.. لتلك اللمحة من الأسى التي رأيتها في عينيها حين انحنيتُ لأفتح باب السيارة في تلك الساعة لنعود.

كان ما ينقص تلك المرأة "الأم" واضحاً، جلياً، فأحرجها وسبب توترها وجعلني أسهو عن أن هناك من ينقصهم ما هو أفدح.

تذكرتُ كل هذا بعدما فوجئت بالبيت مرتباً في الصباح.. الأرضيات لامعة والغَداء مُعدّ.. وكل شيء في مكانه بالضبط وعلى أكمل وجه.

أتمت سعدية في الصباح المبكر كل ما كان عليها إنجازه في يومٍ كامل. أتمته قبل أن أصحو من نومي، دون أن تنسى قهوتي أيضاً، لكن صوتها وصل لأذني غريباً.

التفتُ نحوها فرأيت امرأة عجوز، وحيدة، محدودة الجمال، متشحة بالسواد، حادة النظرة، ومحتشدة بالإصرار على السفر إلى بلدتها البعيدة لرؤية طفل أخيها الذي أبلغوها بمرضه في الليلة الفائتة..

بدا لي ذهابها حتمياً حتى أني أحجمتُ عن مناقشتها كيف ستخرج في هذا اليوم الخماسيني العاصف؟ أحجمت أيضاً عن سؤالها متى ستعود؟ .. إن كانت ستعود .

يطمئنني الآن سكون الريح لكن الشمس لم تشرق بعد .

fb/mashro3pdf

٢-في الصالة المكتومة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كل ما تمنته "فاطمة" ــ التي ينادونها "بطة" ــ كان حولها في تلك اللحظة، وهي جالسة في الصالة الواسعة تتأمل الأثاث الفخم الـذي تناثرت فوقه قطع الأنتيكات القيِّمة، مستسلمة للنسمات المريحة التـي تسللت من النافذة البحرية المغطاة بستارة خفيفة وجميلة. أتاها صوت حماتها العجوز من حجرة بعيدة تعيد عليها إحدى حكاياتها القديمـة، ضحكت بينها وبين نفسها وهي تفكر أن عزرائيل حين يأتي ليقـبض روح العجوز لابد ستزوغ عيناه على بعض الأشياء. توقفت أنفاسـها حين وقعت عيناها على الثعبان الذهبي.." سوار حماتها". امتدت يدها والتفت كفها الصغيرة عليه ودسته داخل حقيبتهـا، بـسرعةٍ سـبقت انكشاف أمرها بثوانٍ قليلة .

بادرتها أم زوجها : بعودة الأيام يا أم عتريس.

لأول مرة تبتلع بطة السخرية دون عناء، فهي أم لثلاث بنات لكن أم زوجها تحب أن تكدرها بذكر الولد الذي لم يأتِ بعد.

ودعتها ونزلت الدرج مرتجفة لا تصدق ما حدث..

" الذهب معي الآن، لابد أنه يساوي الكثير! يمكننـي بثمنـه أن أشتري كل ما أريد".

تمنت أن تشتري ثياباً جديدة لبناتها لأجل العيد، تمنت أيـضاً أن تشتري ستارة خفيفة وجميلة للصالة تكفل بقاء النافذة مفتوحة.

قفز أمامها وجه حماتها..

" لابد أن تلك العجوز البخيلة ستقيم الدنيا ولن تقعدها".

ضحكتُ بتشفٍ، ثم شعرت بوخزٍ خفي..

" ماذا فعلت؟ كيف امتدت يدي لما لا يخصني؟"

fb/mashro3pdf

غير أن بريق الذهب الذي أخفته الحقيبة كان لم يزل يسحر عينيها وهي تتجه صوب بيتها حتى أنها لم تتمكن من رؤية أضواء الشاحنة الكبيرة وفوجئت بها أمامها لا تفصلها عنها سوى خطوة واحدة، فأدركت أنها ميتة لا محالة.

عيناها الهلِعتان المفتوحتان على وسعيهما لم تتمكنا من رؤية الذراع التي أحاطتها وأبعدتها إلى جانب الطريق، ولما انتبهت وجدت نفسها بين ذراعيّ رجلٍ غريب، غريب، حدقت بعينيه للحظة وهي تنتفض مبتعدة عنه، مذعورة ذعراً فاق ذعرها من الموت نفسه.

تلفتت حولها بسرعة لترى إن كان أحدٌ قد رآها على تلك الحال، كانت هناك امرأة، لم تستطع أن تميز ملامحها في الظلام، صاحت ساخرة:

ـ نسوان مساطيل

خافت بطة أن تجعلها هذه المرأة حكاية تلوكها الألسن..

" لن يصدق "محمود" أن الرجل أحاطني بذراعيه فقط لينقذني من الموت".

كان عَرَقها قد بدأ يتساقط رويداً.. رويداً على الخط الداخلي لساقيها فيما بللت حبات مطرٍ خريفي ثيابها عندما اكتشفت أنها فقدت حقيبتها..

" آه.. والذهب".

أصابها الغم لحظة ثم هدأت..

" من يدري؟ ربما كانت بلوى وانزاحت عني".

غير أن تلك الليلة لم تمر عليها ككل الليالي، فبعد أن نام "محمود" خرجت إلى الصالة وجلست وحدها فظلت الظنون تعبث بها..

fb/mashro3pdf

" ماذا لو شكّت فيَّ العجوز؟ كيف سأواجه محمود؟

لقد حلمت كثيراً لو كان لديَّ سوار ذهبي. لكم كان الناس سيرونني بشكلٍ أفضل! لكم كنت أنا نفسي سأرى نفسي بشكل أفضل!

"

عادت تسترجع صورة المرأة التي رأتها في الطريق، تذكرت أنها تشبه امرأة النجار، جارتها الثرثارة. روعتها هذه الفكرة وما روعها أكثر هو وجه الرجل. راحت تتساءل:

أين رأته من قبل؟ حتى طفت بذاكرتها صورة "حسن" خطيبها القديم. إعتصر الهم قلبها..

" إنه هو. رغم أن السنين غيرته كثيراً لكني لا أخطئه أبداً ".

تخيلت محمود تودود له جارتها عن تواعد زوجته مع خطيبها القديم..

" آه.. هكذا سيكون الأمر يا بطة حتى يلتف حول عنقك حبل الإعدام" .

إنتبهت على صوت يوسف وهبي في التليفزيون مطلقاً صيحته الذاهلة:

ـــ ياللهول !!

فاجأها الصباح دون نوم، أفلتت من كبرى بناتها تسألها بإلحاح عن ثياب العيد متذرعة بانشغالها بترتيب البيت وهي تجر خطواتها وجسدها الذي أثقلته ثيابها المنقوعة في العَرَق طوال الليل.

مر الصباح وهي ترى الغريب من شقوق النافذة المغلقة واقفاً أسفل البيت يتطلع نحوها، تراه مرةً حسن ومرةً محمود وفي المرة

fb/mashro3pdf

الثالثة تراه محباً أسَرَته تلك اللحظة فظل يبحث عنها. وقفت تتأمل صورتها في المرآة مندهشة..

" أمازلت أنا المرأة التي يأتي رجل ليقف تحت نافذتها ؟ ".

ضبطت نفسها تكتم فرحةً قصيرة أربكتها..

"أعلم أن محمود يحبني لأني زوجته وأم بناته، أما الحب الحقيقي فلا يعرفه محمود أبداً ".

أحست بالأسى ثم راحت تنهشها المخاوف..

" ماذا لو رآه أحد؟ هل جننت لأفكر بغريبٍ وأنسى زوجي؟ ".

تمنت لو دهمتها الشاحنة، لو ماتت ولم ترَ هذا الرجل. تمنت لو يختفي تماماً من على وجه الأرض، لكن شيئاً داخلها كان يرجو أن لا يصيبه مكروه.

ظلت تروح وتجيء تراقبه حتى سقطت تحلم وتهذي.. رأت نفسها تغني مرفوعة الرأس في حديقة مبهرة ، تتراقص حولها الورود والنمل والنحل في انتشاء، لكن لم تلبث تلك الأشياء أن اندمجت.. صارت ثعباناً لامع الجلد مخيفاً، اقترب منها وجذب ثوبها وتركها عارية.. خجِلة، تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها.

أفاقت من ذلك الكابوس في نهاية اليوم حين سمعت طرقاً هادئاً ومفاجئاً على بابها، دق قلبها حين رأت الغريب أمامها.. انتبهت لنظرته المبهمة وملامحه الجامدة حين أعطاها حقيبتها دون كلمةٍ ومضى..

لم تكن بحاجة لأكثر من هذه اللحظة القصيرة لكي تدرك أنه ليس قيساً كما خافت أن يكون وكما تمنت أن يكون. لم يكن سوى شخص أمين أصر أن يعيد لها حقيبتها التي، لسبب خفي، لم ترَها معه

fb/mashro3pdf

طوال الوقت. علمت أيضاً من إحدى جاراتها أن امرأة النجار مسافرة منذ فترة طويلة.

" إذن فكل تلك الأهوال.. تلك الأحلام لم تكن حقيقية.

ومالي أحس نفسي خاوية من الفرح وقد عاد إليَّ الذهب؟ لماذا لم أعد أراه سوى كتلة من الصدأ؟ ".

تذكرت في تلك اللحظة نزهاتها مع حسن، بقامته الممدودة وثيابه الزاهية وعطره المثير، تذكرت رقته ولياقته وكلمات الحب التي كان يهمس لها بها، الكلمات التي لا يعرف محمود كيف يقولها، بل ربما لا يتضمنها قاموسه اللغوي أصلاً.

ثم ذكرت نفسها، بمرارة، بأن رقة حسن ولياقته لم تكبح شغفه بالثراء الذي جعله يتخلى عنها ويسافر للعمل بالخارج ويحنث بوعده بأن يعود لاصطحابها معه.

بهذه المرارة.. لملمت بقايا عافيتها وعادت ترتب بيتها الصغير.. بدأت بالصالة الصغيرة

" لابد أن هذه الصالة المكتومة هي التي جعلت قِسمتي كلها من البنات !!". تأملت.

فتحت النافذة ثم دون أن تعرف كيف ولا لماذا؟ تركت كل شيء فجأة وذهبت إلى بيت حماتها.

تركت الذهب حيث كان في اليوم السابق، في نفس البيت الذي فقد فتنته في يوم وليلة، غادرته ثم عادت متوقعة أن تشعر بالطمأنينة والراحة.. لكن عبثاً.

" لقد عاد كل شيء كما كان.. فلمَ لا يمكنني أنا أيضاً أن أعود كما كنت؟ "

fb/mashro3pdf

أرادت لو تنسى كل شيء.. إلا أن ابنتها ألقت بكتابها أمامهـا.. تسألها عن معنى كلمة بكتابها المدرسي، ظلت عيناها حائرتين بـين الكلمة التي بدت لها مبهمة وبين الوجه المترقب.. أخـذتْ ملامـح الصغيرة تنقلب نحو الغضب تدريجياً، جذبتْ الكتاب وأعطت أمهـا ظهرها ومضت وهي تهمهم ببضع كلمات مستنكرة بل محتجة علـى انشغال أمها عنها وإهمالها لها.

أحست بطة بنفسها تهوي.. في بحيرة من العَرَق، راحت تتـسع وتتعمق بدموعها المتهاوية رغماً عنها، أحست بنفسها تختنق وتغرق في بحر بلا قرار، في سيلان الصور التي تقـافزت علـى رأسـها فجأة.. مدت يدها أخيراً وفتحت النافذة على أمل أن تأتي نسمة نحيلة لتنقذها، لكن لم تجد حولها إلا الفراغ الخانق الذي ارتسمت فيه نظرة ابنتها المستنكرة وأخذت تكبر بينما انزوت هي فـي أحـد الأركـان خجلى.. تتضاءل...

أخذت في تتبع آثار عَرَقها التي انتشرت في كل البيت.. الثيـاب والفراش، الأرض والحيطان، تجففها خائفة من أن تبقى شاهداً أبـدياً على كل ما حدث.. على كل ما لم يحدث، ثم توقفت فجأة وبحسم عن محاولة إخفاء أي شيء، حتى الأفكار التي راودت ذهنها، لقد فكرت وحلمت وتمنت.. وسواء أرضى هذا محمود أم لم يرضه فليكن مـا يكون "قررت". ولدهشتها فلقد أخذ بحر العرق في هذه اللحظة يجف من تلقاء نفسه.

لما عاد محمود ليلاً، وقفت قبالته وفردت هامتها بكبرياء مستعار، لم يلحظ ذلك، بل مد يده وأغلق النافذة، أرادت أن تستوقفه.. إذ هي النافذة الوحيدة بالغرفة. لكنها حين فتحت فمها وجدت نفـسها علـى

fb/mashro3pdf

وشك أن تصرخ لكنها لم تفعل. حدق محمود بعينيها وأحس بمعاناتها، وإن لم يفهمها، لكن تحديقته جعلتها تحس بإرهاقه، خاصة عندما رأته قد اشترى لها الحلوى التي تحبها، فكرت بأنه احتمل زحام ليلة العيد عند الحلواني لأجلها، لذا نطقت فقط بهذه العبارة:

ـ محمود.. فيه حاجات كتيرة لازم.. لاازم نتكلم فيها.

عاد يحدق في ملامحها بقلق، وقد أدرك، من إصرار عينيها، أنه موشك على خسارتها إن لم يستجب لها. أجابها مبتسماً وهو يضع بفمها قطعة الحلوى:

ـ الصباح رباح يا بطة.

وانزلق تحت الفراش فيما مدت هي يدها وواربت النافذة، فلم يحتج. تنهدت بنصف ارتياح وهي وتنظر ليده الممدودة نحوها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٣-عقدة لسان عم ريحان

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

لا يسعك إلا أن تحسبه موظفاً كبيراً.. وكيل وزارة أو على أقل تقدير وكيل مديرية، ذلك الكهل الذي يناهز السبعين من العمر، وأنت تراه مزهواً في بدلته الرمادية، ذات الخطوط المستقيمة، وتحتها القميص الأبيض الناصع، بأساوره المحكمة بالأقفال الذهبية القديمة.

ستراه يمشي ثابتاً، لم ينل الزمن من خطواته الرصينة، ولولا شيب شعره عن آخره لظننته في نصف عمره، فوجهه المستدير ما زال مضيئاً. أما ملامحه الدقيقة الحادة فسوف توحي لك بغطرسة مندثرة أو بجلال غارب.

سوف يدهشك كثيراً أن تعلم أنه عم "ريحان" : "الرفا".. صاحب الدكان الصغير الواقع على حافة سوق "باكوس"، وسوف تندهش أكثر حينما تراه في صباحات أيام الجمعة ينزل من بيته بالشبشب والجلباب الأبيض حاملاً أنبوبة الغاز ليغيرها من المخزن، أو واقفاً يفاصل بائع البطيخ في السعر حتى يقطع أنفاسه، مصراً أن يشتري بالسعر الذي يراه مناسبا.

عم ريحان هو رفاء أباً عن جد.

يحب عمله ويُعد نفسه إعداداً دقيقاً للذهاب إلى دكانه في أبهى صورة.

الساعة الأولى من الصباح يقضيها في كيِّ البدلة، ثم يرشها بالعطر من الزجاجة الصغيرة التي يشتريها خصيصاً لذلك، ويقف أمام المرآة يتأمل صورته، فينتفخ جانبا أنفه بزهوٍ عميق، أما مصمصة شفاه أم الأولاد حين تراه يتأمل نفسه على هذا النحو فلم تكن تزعجه، ولا تمنعه من أن يتمتم بصوتٍ غير مسموع..

ــ من شر جار وله عينين.

fb/mashro3pdf

إلا أنه هذا الصباح لم يصحُ مبكراً، ولم يقرب المكـــواة، حتـــى المرآة تجنبها، وظل يقدم خطوة ويؤخر أخرى.

بالأمس سأل "حسام" أصغر أحفاده وأحبهم إلى قلبه:

ــ همه أربعين سنة فيهم كام يوم ؟

دار بؤبؤا العينين المستديرتين للصغير ثم أجابه مبهوراً:

ــ كتير كده.. ييجي مية.

منذ فترة غير قصيرة وهو يعاني صُداعاً مؤلماً، اصطحبه ابنـــه الكبير إلى عيادة الطبيب الشاب الذي فحصه فحصاً دقيقاً ثم التفـــت نحو ابنه ضاحكاً:

ــ صحته بمب إنت جايبه تعقدنا ولا إيه؟

لكن الألم ما زال برأسه. صفوفٌ من النمل تحث الخطـــى نحـــو جحورها في رأسه.

الحق أنه اعتاد أن يرمي بهمومه إلى الطريق الذي كان يقطعـــه نحو دكانه كل صباح، لكن هذا الصداع لم يرحمه وهو يحث "غنـــيم" العجلاتي على الترفق بأبيه العاجز، أو وهو يبتسم مواسياً "زهيـــرة" بائعة الجرائد وهي تشكو له متاعبها في تربية أبناء أخيها الخمسة..

"آه.. الله يجازي شيطانك يا ريحان !"..

حدث نفسه وهو منكفئ على القفل المعدني الكبير، يفتحه.

لم يكن لديه ساعة، لكن بإمكانك، أن تضبط ساعتك على الثامنـــة تماماً عندما تراه يفتح دكانه.

من الراديو المركون فوق الطاولة كان يتأكد من الوقت.

fb/mashro3pdf

دائماً كان لديه راديو.. الأول كان خشبي "موبيليا" اشتراه أبوه من خواجة إيطالي قبيل مغادرته الإسكندرية، ثم ظهر "الترانزستور" الصغير الذي يعمل بحجرين أقلام.. إلا أن عمره كان قصيراً.

استقر معه في الفترة الأخيرة "الراديو كاسيت"، الذي رغم حجمه الكبير، لم يستعمله ككاسيت أبداً، فقط كان يصغي لمختلف الإذاعات.

من الراديو كان يعرف كل شيءٍ عن العالم ولا يعرف شيئاً في نفس الوقت...

لن ينسى أبداً كيف أعلن أيام الحرب "إياها" أننا انتصرنا ثم ظهرت الحقيقة مخالفة لذلك...

لا يعلم كيف قادته قدماه نحو محطة السكة الحديد فركب إلى القاهرة وسار وسط الجموع الهاتفة برفض الهزيمة والاستسلام، سوف يتذكر أنه سار صامتاً مثل صنم دون فرقٍ يذكر بين وجوده أو غيابه، بشكلٍ أثار دهشة وتساؤل مَن كانوا حوله، لكنهم راحوا يضحكون حين أجابهم:

ــ أنا طبيعتي كده.. قليل الكلام.. ما تنفك عقدة لساني إلا مع النسوان.

لم يخلُ دكانه يوماً من الناس، اعتاد باعة الخيوط الجوالون ورفاق المهنة الالتفاف حوله في أمسيات الجمعة. كان أكبرهم سناً وأكثرهم حذقاً بعمله. إذا تصادف وحدث عطل بماكينة أحدهم فإنه لا يستجير إلا بعم ريحان...

تنزلق أصابعه المكرمشة بين ثنايا الماكينة برفق ثم يقترب حتى تلتصق عيناه بها، وعندما يُصدم المستجير من واقع حاله ــ ويكون

fb/mashro3pdf

على وشك الإقرار بأنه لجأ لآخر شخص في العالم يمكنه أن يفيده أو يفيد غيره أو حتى نفسه بشيء ــ يفاجأ بعم ريحان وقد أصــلحها.. كيف؟ لا أحد يعلم .

زبائنه كانوا يأتونه من كل الجهات، من "أبي قيــر" إلــى "رأس التين" ومن "مينا البصل" إلى "غيط العنب". يتوقفون عند رفا باكوس الشهير، يأتون من كل المستويات والأعمار: بنت معها بلوزة تريد أن تحضر بها خطبة صاحبتها، شاب معه بنطلون يريد أن يتقــدم بــه لوظيفة:

ــ خلي بالك يا عم ريحان.

يتنهد بأسى.."الرفا مهمّ جداً.. الله يجازي شيطانك يا ريحان !".

دخل يرتب أشياءه.. أخذت عيناه تدوران في المكان حتى توقفتــا عند علب الخيوط .. كان البني الداكن ينزلق إلى العسلي المراوغ ثم يترقرق رويداً رويداً حتى يصل إلى العــاجي الــشاحب، مــروراً بدرجات لانهائية من اللون..

" دقة الألوان لدى الرفا ليست شيئاً ثانوياً، إنها الأساس الذي عليه يكون عمله ناجعاً أو يفشل في رتق المزق والعيــوب، الرفــا فنــان يعرف من أين يشيل وأين يحط، دكتــور تجميــل يــستر العيــوب والتشوهات".. تذكر الفرو الرمادي الذي ثقبته طفأة ســيجار.. ظــل ليالٍ يحلم بالثقب.. بمساحته وتعرجاته ونسيجه ولونه، ليالٍ لا يعرف طعم النوم، إلى أن وقع على أرنبٍ بنفس اللون.

الزبونة نفسها لم تكتشف الرقعة في اليوم التالي، لكــن الأرنــب كلفه أضعاف الأجرة، فراح يرد على تهكمات بنورة:

fb/mashro3pdf

ـ بس أكلنا معه شوية ملوخية.. وحياة سيدي المرسي أبو العباس ما حصلوشي.

عم ريحان كان أيضاً العجوز الطيب والمستمع المثالي الذي لا يحمّل زبائنه عبء فضفضتهم واندفاعهم في البوح. والفضل في ذلك لا يعود لنزاهته وحدها، بل لذاكرته التي نحتها الزمن أيضاً.

حمل في جعبته كثيراً من الخبايا وبقى حافظاً لأسرار نساء بإكوز اللائي كن يتعاملن معه كجارٍ وسند، وكنديم لا يمكن مضاهاة ولعه بالمزاح، ولا نكاته الفاحشة أو قفشاته السريعة اللاذعة. مزاح لم يخلُ من طيشٍ ونزق كان يستدرجه في بعض الأحيان نحو الخوض في عروض للزواج، ذلك أن مجلسه وحيداً هانئاً جعل بعضهن يستمرئن إغراءه، ومباغتة نوازعه الرجولية وبالطبع لم يؤخذ حديث الزواج على محمل الجد أبداً، خاصة عندما يصدر العرض من فمٍ فاقد لأغلب أسنانه لامرأة قصدته من أجل ثياب إحدى حفيداتها.

حكايات كثيرة تسقط من ذاكرته، إلا حكاية "القمر الصغير" أو التي كان يوصلها إلى دكانه كلَ يومٍ شابٌ أسمر، طول بعرض، قدمته لعم ريحان باعتباره أخيها. ظلت تتردد عليه ليعلمها الصنعة، وفيما كانت تقترب منه "لزوم التعلم"، كانت أنفاسها تلفح وجهه بلهبٍ يعيده أربعين عاماً إلى الوراء..

دقات قلبه كانت تنضبط على موعدها. أحب وشك وتعذب مثل مراهق، إلى أن عرف أن الشاب الأسمر ليس سوى لصٍ محترف، استغل البنت "صديقته" لتتفقد محتويات الدكان، ولمّا اكتشفا أن القبة

fb/mashro3pdf

ليس تحتها شيخ اختفيا، ولم يظهر "القمر الصغير" بعد ذلك ولا مرة، ويبدو أن قرون استشعار زوجته قد استُنفرت في تلك الفترة إذ صاحت فيه:

ـ يا راجل عيب على شيبتك.. إنت عيال عيالك بقوا رجالة.

كان ذلك عندما رأته يصوم عن الأكل ملتاع الروح.

مهما تقول "بنورة" لا يغضب منها، فهو يعلم أنها طيبة القلب رغم قسوة اللسان. وهي أيضاً أم الأولاد.

حكى لابنه البكر يوماً عن زواجهما: زمان كنت نشتغل على كرسي وفاترينة في السوق..

أول ما لمحتها نازلة من "الحنطور" إتجننت عليها، شقاوة وجمال وخفة دم بنات بحري على حق.

فار دمي ورحت نطلبها من عمها.

قلت له: نكتب الليلة، والدخلة بعد ما نشتري الموبيليا. وافق.

وبعد الكتاب أخذتها من ايدها و قلت لهم: مراتي وأنا حر فيها. وعلى البيت دوغري.

فاجأتها بالحب وفاجأتني بالحناء.. نقوش ورود وجنيات على جسمها كله، ما عرفت سرها حتى اليوم.. كانت ليلة من ليالي ألف ليلة .

ترك ابنه يضحك بينما أخذت تتجاذبه الذكريات..

" كنت أناديها ست البنات، كانت عندي كذلك، بعد الزواج صارت ست الستات .. وشيئاً فشيئاً أم الأولاد. يخبو الجمال دائماً

fb/mashro3pdf

وراء الأعباء، ويخبو الحب أيضاً. أنا حقيقي حمّلتها الكثير.. البيت والأولاد عليها ولي الدكان، لذا فمهما تقول أتحملها أو بمعنى أصح أسمع من هنا وأطلع من هنا". مشيراً لأذنيه.

إلا أنه ظل طوال تلك السنين يبحث في وجوه الصبايا اليانعة عن ست البنات التي غابت.

رن في أذنيه صوتها موبخاً وقد تكثفت تعاريج وجهها بشكلٍ مفزع:

ــ أنت السبب.. بعدت أولادك عنك، صممت يكملوا تعليمهم، بقى عندك المحامي والمدرس

والمحاسب ومش عارفين يعيشو. الدنيا إتغيرت، الصَنعة راحت وعينيك كمان راحت.

هبط به صوتها إلى سابع أرض.

انعقد لسانه ولم يستطع النطق بكلمة واحدة.

عاد ينظر حواليه وهو يرش الماء من الدلو الصغير أمام الباب..

" الله يجازي شيطانك يا ريحان !".

الدكاكين حوله راحت تتغير في السنوات الأخيرة، تزداد إضاءة وتزداد أناقة، بينما ظل دكانه يشحب حتى أن الكثيرين من السكان الجدد كانوا يمرون به دون أن يروه ..

ــ إنت اتحملت كثير.. عشر سنوات تبلع الضنك على أمل إن الأمور تتحسن. وأهي

fb/mashro3pdf

ماتحسنتش. زعلان على المهنة! مهنة إيه يا خويـــا!!
هندسة الذرّة ولاّ هندسة الذرة !!

قالها "عبد البديع" قبيل وفاته.. ولم يغير رأيه بعدها لسوء الحظ..

ظل عم ريحان يزور "صديق عمره" كل يوم لمدة أسبوع كامـــل، قبيل اتخاذه للقرار. في اليوم الأول غرس شتلة ريحان عند مقدمـــة القبر وظل يسقيها بعد ذلك وهو يتلو ما تيسر من الذكر الحكيم، على أمل أن يهبه صديق العمر أية إشارة تجعله يمتلك الجرأة لمواجهـــة بنورة والأولاد، لكن لا إشارة.

ترك ريحان الدلو من يده عندما وقفت الشاحنة أمام الدكان ونزل السائق متبوعاً باثنين من الحمَّالين.

ـــ ها؟ نبتدي؟

كان ريحان يسمعه ولا يسمعه. بدت الحيرة بعينيّ السائق، وبعـــد شيء من التردد دلف الرجلان إلى الداخل وعادا على الفور محملين بالأشياء التي ما أن رآها حسام، "أصغر الأحفاد" الذي كان يقتـــرب من الدكان في تلك اللحظة، حتى صاح مذعوراً:

ـــ حراااامي!

اندفع الصبي يلكم أفخاذ الغرباء وهو يبكي ويـــصرخ ويـــصفع أيديهم محاولاً انتزاع أشياء جده. إلتمت النسوة وبعد قليل من الأخـــذ والرد ابتلعن المفاجأة، لكنهن ألزمن الرجال بالذهاب ثم العودة فـــي وقت آخر، إشفاقاً على الصغير.

بعد أن انفض المولد وجد ريحان نفسه وحيداً مع حـــسام، عينـــاً لعين..

fb/mashro3pdf

كانت دموع الولد قد جفت عندما سأله:

ـ الدكان.. خلاص يا جدي!؟

انحنى ظهره، وبانت كرمشات وجهه، ولم يستطع النطق.

بعد لحظات نظر للصغير وحاول أن يبتسم:

ـ هأجيب لك بسكلتة بثلاث عجلات

لم يفلح الإغراء في جعل الولد يبتسم

ـ وكمبيوتر

زالت التكشيرة من الوجه الصغير وحدق بجده بانتباه،

ـ وطيارة

صاح الولد منبهراً

ـ أطير بيها بجد

ـ لأ ده إنت طماع قوي!!

انفجر الولد بالضحك فتنهد ريحان.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٤- عازل للصوت

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

بسطة السلم نصف مظلمة، قبضتي تحتجز البـاب كـي يظـل مواربـاً، وعيني قريبة من عينها.

لأول مرة أرى الذعر بعينيها ! لأول مرة أشعر أنها آدمية !

كان هذا خليقاً بإثارة شماتتي في أية لحظة سابقة، أية لحظة عدا هذه اللحظة.

قابضة على الباب، أنتظر أن تنهي كلامها "عواءها" كي أغلقـه، أفلت منها وألتفت لصغيرتي، أتجاهل وجوم ملامحها والسؤال الـذي لم تسأله بخصوص هذا المشهد، أتجاهل وأغني:

ـ يا شمس يا شموسة خدي سنة النعوسة

وهاتي سنة العروسة

وأداري وراء براءة اللحن لومي لنفسي:

ـ ما الذي أعادني إلى هنا؟

ألعن الكتاب الذي أتيت للبحث عنه وسط كتبي القديمـة وألعـن عمل زوجي الذي اضطرني لاصطحاب سارة معي.

لمشاجرات أهالي حارة "الزين" إيقاعات متباينة، كنـت أسـمعها وأميزها حتى وأنا في عز النوم تحت أغطية ثقيلة، كفيلة بعـزل أي إنسان طبيعي ليأكل أرزاً بلبن مع الملائكة، لكننا "أهالي الحـارة" لا نعرف هذا النوم لأننا مسكونون بهذه الإيقاعات التي تخترق الأغطية وتصل لآذاننا مهما فعلنا، وهي أحياناً ما كانت تلهمني أحلاماً مسلية أو مزعجة قليلاً، فأكون واثقة حين أصحو بعد السهرة الأوبرالية المثيرة للمايسترو "خميس العتال" أن "أم ربيع" زوجته ستكون قد حملت ابنها على كتفها ودمعتها على خدها وذهبت غضبانة على بيت أبيها، وأن خميس، كالعادة، أغضبها لعجزه عن إطعامها هي وابنهـا

fb/mashro3pdf

وبالطبع لن يذهب لمصالحتها إلا حينما يأتي الفرج، أو أن "عاشور" الفران هج، مجدداً، من البيت بعد أن وضعت زوجته "الأبلة لـــوزة" البنت رقم كذا "سبع بنات حتى الآن على حد علمي" بدلاً من الولـــد الذي تعلق به كما يتعلق الغريق بقشة متوهمة أو أن "هانم" طـــردت "بركات" زوجها الذي يعود لها وش الفجر مستنداً كل مرة على كتف إمرأة شكل وهو سكران.. طينة.

كل هذه الإيقاعات المثيرة شيء ووصول "سومة الغولة" إلى أذنيّ بإيقاعها غير الآدمي شيء آخر.

ــ أم فوزي باعت بيتها واشترت بداله شقة تمليك في حتة نضيفة

ــ والله جدعة. باعته لمين؟

لن تأتي الإجابة بسيطة كالسؤال، ثمة تردد، ثمة تحـــاش للكـــلام عنها...

وصول الغولة إلى الحارة ألهمني حلماً فريداً، ومثيراً للـــسخرية أيضاً، بجدران عازلة للصوت.

أعرف أن سكان الحارات الضيقة يحلمون بالحريـــة والأمـــاكن المفتوحة لكن الغولة جعلتنا نحلم بالعزلة ولو في ســـجن. بحمـــاس مستعر رحت أستميت في محاولة بيع البيت.. بيت جـــدتي وأمـــي، أرحب بالشاري، أفرجه على الشقق التي أكـــون نظفتهـــا ونظمتهـــا وجملتها قبيل وصوله، أقبل بالتهاون في السعر، بالتقـــسيط، أســـرع الخطوات آملة في بلوغ لحظة التعاقد التي لم تأتِ قط، إذ في كل مرة تتوقف المفاوضات في اللحظة الأخيرة، تحديداً.. عند انكشاف أمـــر الغولة.

fb/mashro3pdf

فشلي في بيع البيت جعلني أتشبث بحلمي أكثر، شقة بحي راقٍ، حتى لو صغيرة. جيران مهذبون، حياة هادئة وخاصة. حلم أضعت لأجل تحقيقه أشياء كثيرة.

أهدهد صغيرتي كي تنام، فتهدأ قليلاً وتغمض عينيها ثم تفتحهما بمجرد أن أرفع يدي عنها، أهدهدها مجدداً بتعاطف يخفي امتناني لألمها الذي ألهاها وأنقذني من إجابة ملفقة.

لأول مرة أرى الذعر بعينيها، الذعر الذي أشاعته بين أهالي الحارة.

أتصور أني لو أجريت بينهم استفتاء بشأنها لأجمعوا على عدالة شنقها في ميدان عام، وربما اختاروا لها ميتة طويلة مؤلمة، أو لاكتفوا، في أفضل الحالات، بوجوب قطع لسانها جراء ما سببه من إيذاء لهم، وفقت أنا في الهرب قبل أن يطالني وربما لو بقيت ليوم واحد آخر لعانيت نفس ما عانوا. أتصور أيضاً أن أياً منهم سيبدو مستعداً لدفع كل ما لديه من مال مقابل هذا المشهد.. أن يتشفى برؤية الغولة التي لا رادع لها خائفة، كالآدميين، حد الذعر.

السنة مازالت تؤلمها، تضغطها بلسانها، تحركها للأمام والوراء لكنها تعصى على الخلع. كنت متخيلة أن اعتنائي بتغذيتها سيوفر عليها الألم.

ــ ساره حبيبتي.. خدي نفَس عميق وحاولي تنسيها.

ليس كل ما يحدث قابلاً للنسيان.. فهأنا بعد كل هذه السنوات أجد نفسي مجدداً في حارة "الزين" مصطحبة سارة التي لا تعرف شيئاً سوى عالمها الخصوصي الهادئ... عالم توم وجيري، والأميرة والشاطر حسن.. إلى آخر أقرانهم العصريين.

fb/mashro3pdf

الهدوء في الحي الذي نسكن إحدى شققه الآن ليس مصدره حسن خلق الجيران، فبعضهم أكثر تغولاً من الغولة، غير أننا لا نكتشف ذلك سوى من وسائل الإعلام، فيما يبقى المظهر هادئاً واللسان، خاصة، مسالما ومنمقاً، حتى لأكثر مصاصي دماء الناس احترافاً، ناهيك عن كون إيذاء هؤلاء عمومياً "كسرقة المال العام" وليس مباشراً تجاه حفنة من البسطاء، سكان حارة مجهولة ولا محل لها من الإعراب كحارة "الزين" التي اقتحمتها الغولة وقلبت حياة أصحابها.

الحارة لا حس لها ولا خبر هذه الليلة. هل الأهالي غير موجودين؟ أم مختبئين؟ فلو ظهرت أم عاشور أو الأبلة لوزة أو حتى خميس العتال لما قصدتني.

الباب أمامي لا أجرؤ على فتحه، أقنعت نفسي أنني سأخطف رجلي لبضع دقائق وها قد صرنا، أنا وسارة، رهينتين ريثما ينتهي الأمر! فكيف سينتهي؟ ماذا يمكن أن يحدث لهذه المرأة التي تكفي نظرة واحدة لعينيها لتؤكد أننا أمام أكثر مخاليق الأرض بأساً وقساوة؟

ـ بلطجية. مسجلة خطر.

هذا التعبير المقتضب هو كل ما قالوه لي قبيل وصولها للحارة ثم شيئاً فشيئاً، عرفت المزيد. ذكر أحدهم أن لها ملفات لدى المباحث بأنواعها، وذكر آخر أن زوجها يقضي عقوبة بالسجن منذ سنين طويلة. أما زميلتي التي تعمل بالبحوث الاجتماعية فترى أن هذه الشريحة الضئيلة من البشر تكون قد تعرضت لقسوة وعنف ضاريين وغير محتملين في الطفولة أو بداية الصبا، ما يفقدها آدميتها بالفعل،

fb/mashro3pdf

ويسقط عنها برقع الحياء "الاجتماعي المتعارف عليه"، ويفقدها كل وازع ديني أو أخلاقي.

ـ مسخ !!

ـ إستغفر الله العظيم. جوزها الأولاني هوه اللي عمل فيها كده. بيقولو كان بيحبها وخاف تغدر بيه وتتجوز غيره

ـ ورضيت تتجوزه بعد ما عمل فيها كده!

ـ الناس الطيبين أقنعوها ان الصلح خير. جوزها التاني كمان بيغير عليها موت.

ـ يغير؟

هذا الإيضاح ذكرته لي أبلة لوزة عندما لاحظت انزعاجي لمرآها، وحيرتي في أمرها:

ـ أين تنتهي المجرمة وأين تبدأ الضحية فيها؟ وبكم من ألوان طيف العنف البشري تمتلئ المسافة بين الحالتين؟

المرة الوحيدة التي حدقت في ملامحها ملياً عمقت من حيرتي.. فأي يد فنانة بإمكانها أن تسكب ماء النار بهذه المهارة والدقة !! ليصبح نصف الوجه الأيمن متآكلاً ومشوهاً تماماً ! فيما يبقى النصف الأيسر محتفظاً بجماله، بل.. آية في الجمال!

بل كيف لم تمت بعد هذا الحادث القديم؟ كيف تعايشت مع المجرم الذي شوهها بدافع الحب؟ كيف أحبته؟ فقد ذكروا أشياء خيالية عن حزنها عليه سنوات طويلة بعد موته. وأخيراً كيف تعايشت مع صورتها كمسخ؟ المؤكد في كل ذلك أنها ازدادت شراسة بعد الحادث القديم.

fb/mashro3pdf

مولعة بالحفاء، تلبس أقذر الثياب "على اللحم"، ومستعدة لرفعها وكشف جسدها كاملاً بحركة واحدة إذا لزم الأمر "لتثبت أنها أطهر نساء الأرض.. بتول !!"، هذا بخلاف لغتها المختلفة، فسب الناس ـ خاصة في أعراضهم ناهيك عن القذف بما يفرق بين الأخ وأخيه أو بين الرجل وزوجته ـ هو تحية الصباح أو هوايتها المفضلة في أوقات فراغها من عملها الأساسي في إفزاع الناس الاحترافي "مدفوع الأجر حيث يستأجرها البعض لترهيب خصومهم".

أغلب مفردات السباب الشائعة تثير الضحك عند تأملها بذهن صافٍ، والألفاظ التي ندعوها نابية لو لم نستخدمها في مشاجرة حامية ولو على سبيل "العين بالعين.. والبادئ أظلم" فسنهمس بها مع ضحكة طويلة ساخرة أو في أضيق الظروف مع ضحكة مكتومة ونحن نحكي عن نوادر مشاجرات فلان مع عِلان. لكن هنا.. في حارة الزين مهما كنت قليل التهذيب، أو "صايع" أو حتى "لافف ودايِر ومقطع الدنيا" فلا يمكنك مجاراة سومة الغولة، لأن لسانها يغترف من قاموس استثنائي، مغاير للغة التي يعرفها حتى أقل البشر تهذيباً.

لذا لم أندهش عندما أخبروني بمشاركتها في إحدى المظاهرات بأداء دور متين في ردع المتظاهرات أو بوقوفها أمام اللجان الانتخابية لمنع مؤيدي المعارضين من الإدلاء بأصواتهم.

في بعض الأحيان كانت تتسلل إلى نومي، تطاردني بسكين بشع فيتملكني الهلع، حتى أن صرختي تخرج بلا صوت، أصحو غارقة في عرقي ولديّ رغبة في التقيؤ من بشاعة وجهها، ورغم ذلك فجرأتها أحياناً ما تثير إعجابي، لا أحد يمكنه أن يدوس لها على

fb/mashro3pdf

طرف، الجميع مجبرون على الابتسام وإلقاء التحية عليها بمنتهى الأدب حتى وهم يدعون بموتها في سرهم.

جرأتها تشعرني بالجبن، وأنا أحاسب في كل كلمة قبل النطق بها، وأبتلع مالا يعجبني من الآخرين في صمت، مذكرة نفسي بقاموسي الأخلاقي المتين، وبأهمية الحفاظ على صورتي أمام الجميع، كما أفكر بمصالحي التي تضطرني لسب من أراه يستحق ذلك، لكن.. في سري. أما هي فلا تعرف الأسرار، متحررة من الاهتمام بفكرة الآخرين عنها، ناهيك عن أن عنفها يحقق لها مصالحها وليس العكس.

السنة مازالت تؤلمها وتوترها.. وعيني التي رأت آدمية ذعر الغولة هي أيضاً تؤلمني..

فعلى خلاف أهل الحارة البسطاء "وأنا منهم" الذين هم حمقى أكثر منهم أشرار، بقيت الغولة وحدها مكرسة في ذهني كنموذج للشر الخالص... عدا هذه الليلة.

لكن ماذا أفعل؟ صورتها المحتملة كضحية راحت تؤرقني، ولا سبيل للخلاص من هذا المأزق. أخشى أن ألوم نفسي لو ظللت، فقط، أترقب ما سيحدث.. ما أخبرتني أنه سيحدث بجعيرٍ منكسر مخالف لجعيرها المعتاد. فكرت أن أتصل بزميل دراستي "رءوف مرسي" الشاب ناعس العينين فصيح اللسان الذي كان شاعراً صغيراً يحلم أن يصبح شاعراً كبيراً، وهو حلم لم يتحقق، فقد صار شرطياً، واستغرقته مشاغل مهنته، لكني ترددت، ففي المرة السابقة عندما طلبت منه حماية جارتي من بذاءات الغولة أحرجني بعبارته الباردة التي تساوي بين المجرم والضحية:

fb/mashro3pdf

ـ حِلوا الموضوع ودي أحسن.

علمت بعدها أن الغولة تم تجنيدها كمرشدة للشرطة، لعلمها بخبايا تجار المخدرات ـ وهو أسلوب تتبعه أجهزة الشرطة بكثير من دول العالم وتعاني أيضاً ويلاته لأن السيطرة على من طُبعوا على الإجرام غالباً ما يثبت استحالتها ـ وربما يكون هذا التعاون هو الذي جعل رءوف مضطراً للتغاضى عن مخالفاتها الصغيرة.. "ما تفعله بجيرانها". إستجمعت شجاعتي وطلبته، بجرأة أكثر هذه المرة "لحماية مرشدة تخصهم" آملة أن يهتم، لكنه فاجأني:

ـ وإيه اللي مزعلك؟ ما تتفلق المزعجة دي!

إذن فقد تحولت إلى مزعجة ! تنهدت يائسة. الأمر الآخر الذي فهمته من باقي حديثه المقتضب هو أنه لن يتدخل ما لم يحدث ما يستوجب تدخله.

وقد ركزت الصحيفة في اليوم التالي على حضور الرائد رءوف مرسي، بنفسه، إلى مسرح الجريمة، وتمكنه، بعد مطارات مضنية، من القبض على الجاني ـ الذي غادر السجن بعد انتهاء عقوبته وذهب في أول يوم حرية له، حيث كان مبيتاً النية، لقتل زوجته التي وشى له "مجهول" عن سوء سلوكها فترة سجنه ـ كما أفرد الخبر مكاناً لائقاً لصورة الرائد رءوف، ولعجبي، كان مكتوباً تحتها اسم المجني عليها: سومة الغولة وهو خطأ غير مقصود صححه الصحفي، معتذراً، في العدد التالي. أما الصيحة غير الآدمية التي انطلقت لتوقظ النيام في المنطقة فلم تأتِ لها الجريدة على ذكر. عدنا أنا وسارة إلى بيتنا، بدون الكتاب الذي ذهبت، بحثاً عنه، إلى حارة الزين.

fb/mashro3pdf

٥ - دوائر الفوضى

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في مجلس الحكماء وعلياء الحكمة أجلس مربعة الذراعين، أستميت في تقمص دوري، أذهب في دروب أيامي، أعيد ترتيبها، أزيح خلفاً ما كان أمامي، ثم أرسم من حولي دوائر لا تنتهي، كي أنتهي من حيث بدأت، كي أتساءل بهدوء: أكان يمكن أن يحدث غير ما حدث؟

أتأمل وجهي في ظلمته، في اجتراح ريائي، أفك ذراعيَّ فأسقط معهما إلى الأسفل، إلى البدايات، أخاف أن أبدأ سِفْر النكوص، أخاف أن أرجع، إلى أي مكانٍ تركته وسكنني، إلى أية لحظةٍ عشتها ولم أعشها.

هناك.. في استجداء ما ذهب، في استنطاق المكتوم، أراك كما رأيتك أول مرة..

عبقُ اللقاء الأول يشدني من جديد، وقبل أن يتملكني تماماً، ستجرجرني دواخلي كي أتذكر كيف أخذتُ ألقنُ نفسي ذلك الإحساس الزائف بثقلك وجمودك.

أرى اليوم تكراراتي تلك، كأنما كانت لنفي نقيضها، لنفي انسحاقي أمامك منذ اللحظة الأولى.. مُحِبة تفيض حباً، تفيض غضباً.

صوتك الذي مازلت أسمعه، مازال معي، ومازال يصيبني بالهلع نفسه، لأني أدركتُ منذ ذلك الوقت أني سأتبعك باقي عمري، لكني تمالكتُ نفسي وأقصيتكَ بعيداً.

آه.. هل من خطيئة أبشع من مخادعة النفس!

قطٌ صغيرٌ كان ينبش أعماقي مهدداً مسيرتي ومصيري.

الآن فقط أرى كيف روضت نفسي كي أزيحه بعيداً عني، أرى نفسي التي أهنتُ عليها التراب وأبقيتُ فقط صورتها؟ سجنتها في

fb/mashro3pdf

الإطار الثمين الذي سجنني صورةً للعقل والتمدن، تحمل صخبَ الألوان، صخب الزيف والافتعال، بينما لا تنطوي حقيقتها سوى على الخوف، سوى على الضعف الذي استمتُ، منذ كنت طفلة صغيرة، لأنفضه بعيداً عني.

أخي... أخي كان الرجل الأول في حياتي، أحببته وأنا أكتشف اختلافه عني، وأفتقد ألق وجودي بدونه، لكن الإطار الذي وضعوه داخله هو ما أقصاه في نفسي بعيداً عن أمكنة المحبة، هو ما جعلني أؤسس ذاتي بالنفور، لأبقى مرتعاً للوحشة والتوحش.

بنجاحاتي المتواصلة حصنتُ نفسي وسيجتُ دواخلي، وأقمتُ قانوني الخاص، حكمتي الخاصة:

"القرب يعني أن يكتشف الجميع أن هذا الطاووس الزاهي ليس سوى كومة ريش".

وحيدة بقيت. متعالية.. حتىٰ على نفسي. خائفة من الرجال ومهووسة بالمعارك.

أنصب فخاخي، أدخل إطاري.. جمالي، تأنقي، ورقّتي الاستثنائية، كي أحصي الفرائس.

أتفنن في رسم عيوني وتلوين نظرتي كي ترتل عيناي شعراً دون أن ينطق لساني، كي أستمتع في اللحظة المناسبة برفض وصد كل من أحبني، كل من أحب صورتي، وأتقبل نصيبي من الألم، إذلالي لمشاعري وقمعي إياها إذا ما أفلتت مني وعصتني، فمالت لأحدهم.

أين كان يبدأ الفخ؟ وأين كانت تنتهي الطريدة فيّ؟

* * *

fb/mashro3pdf

ذات يوم جئتَ أنتَ ... جئت جميلاً ومخيفاً تكره الصور والإطارات.

لا أدري كيف باغتني حبك وأنساني جروحي. دون أن أشعر مزج خضرته بعيوني، وياسمينه بأنفاسي، وطراوته بأسمنت حصوني فلانت. عندئذٍ أدركت أنها نهايتي، وأني مندفعةٌ، بلا أمل في الخلاص، داخل دوائرٍ من الفوضى.

مريول المدرسة، فستان السهرة، وعباءة الحكمة، ظلوا يتنازعونني. وقبل أن أتفتت بينهم، تشبثت بالحكمة المزعومة، لن أكون الجاحدة التي تصفع وتركل وتدوس قانون حياتها:

"القرب يعني التهاون".. لا تنسي. "يعني التهافت".. لا تنسي. "يعني التماهي والتلاشي".

استنفرت كل دفاعاتي الحية والخفية، الخفية عني أنا نفسي.

لم أعرفني أبداً قوية إلى هذا الحد فأندفع وأدفعك بعيداً دفعةً بلا عودة، إلى تلك البلاد البعيدة.

لماذا لم أدرك أن للفوضى حكمتها وقيمتها وضرورتها؟

أ كنتُ أصوره لنفسي أخي المميز في كل شيء لأمقته؟

أتخيله زميلي الذي يستخف بي لأعلن الحربَ عليه؟

أكان مثلهم؟ أم تراه كان صادقاً في حبه لي؟

ثمة لحظة.. ومضة..

كان قريباً مني فاستشقتُ هواءه، وحين اقترب أكثر تأملتُ شعرةً بيضاء في شاربه، وحدقت بعينيه، فرأيته يرسم مَجْرَىً بروحي، وشعرت بنفسي أهوي..

fb/mashro3pdf

لفَّتني ضبابة كثيفة حيث توقفت عن أن أكون أيَّ شيء، وحيث أصبحت كلَ شيء في نفس اللحظة.

أريد أن أهرب من هذا التساؤل: كيف فعلتُ به ما فعلت؟

أ كان السبب هو خوفي من أن يكون كغيره من الرجال، يتمسكن وحين يتمكن، حين أصبح في قبضته، في قفصه، سيلقي بي جانباً ليصعد ويكتمل غروره!

تحاصرني ظنوني، وتحصرني في التقاطع الذي يشطر روحي إلى نصفيها....

إلى أين أذهب منك ؟ بل كيف أهرب مني؟

أنا التي تجاهلت يوماً رقة روحك واختلافك عنهم وعني.

حمقاءٌ كنت أنا! أرى الناس من ثقوب شِباك نصبتها حول نفسي، أراهم برأسي المضغوط وعيني الضامرة. ربما كنت متجنية عليك، ربما لو عدت إلى ذلك الوقت، لقاتلت من كانوا يدفعونني بكيعانهم لأسقط ويرضون غرورهم، لقاتلتهم دون أن أقتل نفسي بفقدك، دون أن أحفر ذلك الثقب بروحي لتذوي بعدك.

لكني أعود مرة أخرى وأقع في شرك ظنوني: لماذا صدقت لساني وكذبت حريق أوردتي؟

لماذا استسلمت لعقدي وهواجسي؟ لماذا طاوعتني؟ لماذا ذهبتَ؟

أصحو وأغفو، أغوص وأطفو، ثم لا ألبث أحملك وطأة تركي خَرِبَةً بعدك. أحملك حرقة ذلك الظمأ الذي ما عاد يمكن أن يرتوي بعدك.

fb/mashro3pdf

فالآن، بعدما تقدم بي العمر وصار لديَّ كل شيءٍ يحلم به رجل كان أو امرأة، كل ما يظنون أني قاتلت لأجله، أرى الإعجاب في بعض العيون، وأرى الحسد في عيون أخرى، وأعلم أن هناك من يشفقون عليَّ من وحدتي الفريدة، ويجهلون أنه ينبغي عليهم أن يبكوا من أجلي، لخيبتي الأكيدة.. لفقدي حبي.

حين بدأت أرقب الخمائر الهَرِمة تمتزج بلعابي، حين بدأت أرى كم تغيرت، وفاجأني انطفاء حماسي للقتال، فكرت في الالتحام بآخر، فكرت في الزواج ، وأدركت بعدما فشلت أيُ خَرابٍ تركته بي!

أبحثُ عنكَ في كلِ آخر، وأعجز عن قبول أية صفةٍ، أية ومضة، أي صوتٍ سوى صوتك، أعجز عن تخيل انتفاض كياني سوى لرحيقك.

أخلع عباءة الحكمة، أزدري فحولة كلماتها، وقداسة أعرافها، أضرب أخماساً في أسداس، ثم أجلس زاهدةً في كل شيء.. ساهرةً مع الساهرين والحائرين.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٦- أوسكار

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ذات يوم بعيد وقف رجل عند سفح الجبل ثم رفع رأسه متأملاً وقال: إن تضاريس الجبل تشبه تقاسيم ظهر امرأة.

ليل/ داخلي:

لقطة عرضية "بان" مع حركة جانبية للكاميرا تتابع خطوات رشيقة فوق البساط الأحمر، تخطوها امرأة ترتدي ثوباً من التافتاه السوداء، بديكولتيه واسع يكشف ظهراً من المرمر، يهفهف فوقه شعرها الكستنائي السخي، في قاعة مظلمة تضيء تدريجياً مع كل خطوة.

ـ لاشيء يبرز جمال امرأة مثل ثوب أسود.

هكذا فكر رجل يغطي عينيه بنظارات طبية ويدخن البايب بشراهة، مشيراً بسبابته لأعلى، دون أن يقول أية كلمة.

ابتسمتْ لتعبير عينيه لمرآها، مبتهجة من تحت جلدها، فهي تعرفه جيداً، قليل الكلام، جهم الملامح، يحتقر مئات الأشياء وعلى رأسها المرح كما يجيد الادعاء بأنه نسي خاتم زواجه على رف الحمام.

هي تعرف كل ذلك.

دفع مصمم الملابس الكاميرا بعيداً عن عينيه ثم التفت نحو الصحافيّ الشاب مزهواً:

ـ لو بيفهموا يدوني أوسكار على الفستان التحفة ده.

ثم استطرد يقص عليه الحكايا المثيرة عن فساتين نجمات هوليوود الفاتنات

fb/mashro3pdf

آه.. السجادة الحمراء. حدثت نفسها في المرآة الضخمة مأخوذة.

فاجأتها "إليزابيث تايلور" تتشبث بذيل جاكيت العالمي "فيلليني"، ثم تتبعها كاترين زيتا جونز متعلقة بظهر مايكل دوجلاس وصائحة:

ـ اللي له ضهر ماينضربش على بطنه.

إنحنت فجأة لتتقي صفعات كفٍ خشن لامرأة مذعورة العينين حين ضبطت طفلتها تلعب مع ابن الجيران بعشة الفراخ:

ـ قومي يا فاجرة. بتعملي إي عندك!؟

رائحة عشة الفراخ وغواية اللعبة النزقة ومتعة الشعور بالانفلات من قيود النعم واللا، هم الذين وضعوها على أول الطريق الذي ما كانت لتجد نفسها في سواه...

ـ إضحكي. عيطي. إعملي نفسك خدّامة. إعملي ست الهوانم.

ـ لهلوبة! التمثيل في دمها !

ـ ٩٩% منها ممثلة

اللهلوبة التي سرقت الكاميرا ممن يفقنها حسناً وبهاء صارت النجمة الأولى بلا منازع، أقوى من أن تهزها عاصفة بلوغها عمر الأربعين وانسحاب النضارة تدريجياً من خلاياها وأضعف من أن تصمد أمام صفعات امرأة مسكونة بالمخاوف أو مهاتفة تليفونية من مجهول ـ من العسير تصور انتمائه للجمهور العريض الذي يتزاحم على شباك تذاكر النجمة الأولى ـ يتهمها بتجسيد أدوار تحرض على الرذيلة.

fb/mashro3pdf

يصعب على العدسة تسجيل سقوط الحسابات الفنية في تلك اللحظة وتفشي عدوى ضآلة التقدير، مع أن المغالاة في التقدير تسود أغلب الوقت وتوقع بضحاياها.

وجه المخرج البارنويدي المتجهم يملأ الكادر بحيث يصبح بإمكان أي كان أن يقرأ حركة شفتيه وهو يهمس بأذنها وحدها: تتجوزيني!؟ ثم يلتفت للآخرين مدعياً أنه نسي خاتم زواجه على رف الحمّام، وبحيث لا يمكن لأي كان أيضاً أن ينكر صلاحيته لأن يصبح ظهراً لا بأس به يحمي من الذعر الذي أورثته إياها صفعات امرأة عاشت تعسة، تربي ابنتها وحيدة بعد أن هجرها رجلها، وماتت قبل أن تفرح بخبر ترشيح ابنتها لجائزة الأوسكار.

يمرر المصور لقطات استرجاعية من أرشيف السينما..

* الدموع تلتمع فوق خضرة عينيّ "زبيدة ثروت"، باكية "الحب الضائع". تفلت الأوراق والورود من يدها، وتسقط، بدوي هائل، مرتطمة بالأرض.

ينحني ظهر المرمر..

* الضغينة تبتلع وجه "سناء جميل" المغضن، تجاه "الزوجة الثانية" فتلمع السكين فوق رقبة البطة المتأهبة للذبح وفي خلفية المشهد يتصاعد بخار الماء المغلي فوق الموقد الطيني المتأجج.

ينحني ظهر المرمر.. مع رغبة مفاجئة في التقيؤ. تسرع نحو الحمام

fb/mashro3pdf

.... عندما كنت صغيرة كان أكبر أحلامي أن أصبح في مثل جمالها، وعندما صارت رأسي تناطح رأسها كنت أتفنن في إعادة نحت وجهي بأقلام الماكياج الملونة كي أمحو شبهي بها..

ـ عايزاهم يقولوا عليكي تربية مره !!

دفعتها مخاوفها لأن تقسو عليّ لتربيني أفضل ما يكون و.. "كما ينبغي".

.... لو لم تكن في غيبوبة لنزعتْ هذه الإبر والأنابيب من ذراعها، كان كبرياؤها عظيماً كأنفها الذي كان مرتفعاً ثم انحنى وتهدل غضروفه تحت وطأة الشيخوخة. مددت يدي وحاولت أن أرفعه كما هو في ذاكرتي فأبى. مررت أطراف أناملي فوق شعرها المشعث الذي لم ألمسه منذ سنوات طويلة، وحاولت أن أرتبه لها كما كان، لكنه كان متهالكاً تماماً.

تحسستُ أنفي بقلق.

في ملامحها التي تتسرب منها الحياة عرفت كم أشبهها.

همستُ بحرقة في أذنها: ماما. ردي علي.

فلم تفعل.

آه.. لماذا تأخرتُ؟

ـ إنت عايزه رومانسي ولاّ واقعي؟

يتساءل مساعد المخرج ببساطة.

يجذب البارانويدي البايب من بين شفتيه مستفزاً:

ـ إخرس إنت. مش شغلك

يتصاعد الدخان فوق رأسه الضخم

fb/mashro3pdf

وفي خلفية المشهد الدخانيّ الخاطف تظهر زوجته الشابة حزينة ووحيدة بفراشها في انتظاره ويظهر على "الكومودينو" المجاور خاتم زواج تتأمله وتبكي... ليكون الفيلم: رومانسي.

أو يظهر خاتم الزواج معلقاً بإصبع منزوعة من كفها.. إصبع مازالت حية ودافئة الملمس.. فتصرخ الزوجة بعيون جاحظة، وتقذف بهذه الإصبع الدافئة بعيداً.. ليكون الفيلم: رعب.

ينحني ظهر المرمر أكثر وأكثر وفوقه تأتي صيحة نجمتنا، عميقة وغير آدمية "تقريباً":

ـ كفاااية. مش قادرة أتحمل.

يصيح المخرج البارانويدي صيحة ظافر:

ـ قفشناها ! قفشناها !

تنظر له بدهشة وتساؤل وهي مازالت منحنية:

ـ صرختك دي هي أول مشهد في الفيلم الجديد

ـ الفيلم الجديد!!

بمرارة، تلملم فتات نفسها المبعثرة تحت وجه تعالت عليه الدموع.

تتسلل إلى أذنيها همسات ساخرة:

ـ جواز يعني احتكار مدى الحياة.

ـ قلبك أبيض.! بالكتير الخمس ست سنين الباقيين في عمر النجومية !

fb/mashro3pdf

عندما أدركت أنه لم يحب سوى نفسه، نزعت طعم قبلته من فوق شفتيها بمنديل ورقي سارعت بإلقائه في سلة القمامة بـنفس الحيـاد الذي استقبلت به بعد ذلك تفاصيل الرواية الفنية الأكثر سخونة:

ـ موضوع الأوسكار كله كان كذبة من تأليفه. إشـتغالة من إشتغالاته.

توقعوا أن تنهار أو على الأقـل تهـرب ـ مثلمـا فعـل هـذا "البارانويدي" مصطحباً مدير دعايته، ريثما يستعيدا نضارة مخيلتيهما لحبك التبريرات المناسبة ـ لكنها خيبت توقعاتهم ونهضت.

مشيت بهامة مفرودة تدق الأرض بقدميها الحقيقيتين...

.. خطوة.. خطوتان.. فوق السجادة المهترئة عند تدقيق النظر.

فاجأها الصحافي الفضولي:

ـ صحيح موضوع الأوسكار كله متفبرك!؟

أتى رنين الموبايل لينقذها من إجابة متسرعة، ضغطت، متمهلة، زر الإغلاق، ثم أجابت بثقة:

ـ الأوسكار الحقيقي بالنسبة لي هو حب الجمهور.

ـ وفيلمك الجديد: رومانسي برضو!؟

ضغطت زراً آخر فمحت الاسم الذي لا ترغب في وجوده علـى قائمتها ثم التفتت، وأجابت وهي تفرد هامتها، بابتسامة ملغزة، ستحتل أغلفة المجلات الفنية في الصباح التالي...

ـ لأ. رعب.

ومع مخرج جديد

fb/mashro3pdf

قراءة في المجموعة القصصية

نصف ضوء

للكاتبة: عزة رشاد

عزة رشاد سليلة أطباء مُنحوا ــ منذ جدهم أنطون تشيكوف (١٨٦٠ ــ ١٩٠٤) ــ موهبة الإبداع القصصي. فقد سبق أن أصدرت روايتها "ذاكرة التيه" (٢٠٠٣) ثم مجموعتها القصصية "أحب نورا.. أكره نورهان"(٢٠٠٥). وفي هذه المجموعة القصصية الثانية ــ التي تضم إثنيّ عشرة قصة قصيرة ــ تواصل نضجها الإبداعي. فمعظم قصص المجموعة تتناول العالم الداخلي للمجتمع النسائي الذي تطل عليه ومنه مبدعتنا لتطلعنا على ما يدور في خبايا مستوياته المختلفة: طالبات، فقيرات في أحياء شعبية، شخصيات من الطبقة الوسطى، حتى البلطجيات والمسجلات خطر (سومة الغولة بطلة قصة عازل للصوت).

كما تتحرك القصص بين الضمائر الثلاثة : الغائب والمخاطب والمتكلم . ورغم فصاحة الأسلوب إلا أنها تطعمه من حين لآخر بتعبيرات عامية ومقطوعات من أغانٍ شعبية وما أطلق عليه ابن جني "مصاقبة الألفاظ لأشياء المعاني " وذلك حين تستحضر اللفظ كما يُنطق لحظة الانفعال مما يهب القصة نكهتها الشعبية حيناً والمصرية حيناً آخر على نحو ما نقرأ صيحة أميرة في قصة " لا أحد يغضب من أميرة " أنا الأوورلى. وعندما تُحرف إسم صديقتها صفاء صائحة بضحكتها المعهودة " صفر .. ويا صفراء يا أم الضفاير" . مما يسهم في البناء الخاص للقصة، وهو شرط التفرد الذي لا يُحسب إنجاز في النص دونه، ويهب للنص نكهته الشعبية حيناً والمصرية حيناً والحضور المجسم حيناً ثالثة.

وبيئات القصص تتأرجح بين المدينة والريف الذي غزته طلائع المدينة. بينما تتأرجح شخصياتها ما بين طقوس " وصبارات وشواهد قبور صغيرة" (قصة 'خيط ممدود").

أما محاور القصص فهي العلاقات البشرية في تطورها بين هذين الطرفين وما بينهما من علاقات متآلفة حيناً، متوترة حيناً، متقاطعة أحياناً، غير متوازية مرة رابعة كما في قصة "في الصالة المكتومة" حين يمس الانفعال قلب بطلتها التي تتساءل "أما زلت أنا المرأة التي يأتي رجل ليقف تحت نافذتها" وذلك حين أعاد لها

fb/mashro3pdf

حقيبتها شخص أمين "لم تكن بحاجة لأكثر من هذه اللحظة لكي تدرك أنه ليس قيساً كما خافت أن يكون وكما تمنت أن يكون" مما أعادها إلى قصة حب مهزوم في شبابها لتعود إلى حاضرها عند عودة الزوج الذي أعلنته "فيه حاجات كتيرة لازم نتكلم فيها فكان رد فعله "الصباح رباح يا بطة".

وتعتبر قصة "دوائر الفوضى" قصيدة شعر لعاشقة ــ وقد تطور بها العمر ــ ترثي حبها المفقود "وقد صار لديّ كل شيء يحلم به رجل أو إمرأة، كل ما يظنون أنني قاتلت من أجله" فإنها ماتزال تبحث عنه في كل آخر... ساهرة مع الساهرين والحائرين".

وقصة "عقدة لسان عم ريحان" تذكرنا بقصتيّ "سر المعلم كوروني" للكاتب الفرنسي ألفوني دواديه (١٨٤٠ ــ ١٨٩٧) وقصة "الفواخير" للكاتب المصري محمد سلماوي حيث تدور محاور هذه القصص حول إنحسار إحدى الحرف. "سر المعلم كوروني" تنتهي بموت المعلم كوروني صاحب طاحونة القمح التي تدار بالهواء عندما توقفت بسبب منافسة الطواحين البخارية الوليدة، أما قصة محمد سلماوي فتنتهي أيضاً بموت صاحبها عم صالح حين هدمت إحدى الشركات الأجنبية فاخورته التي كان يصنع فيها الأواني الفخارية لتمتلك أرضها التي ستقيم عليها مشروعاتها، بينما كان مصير عم ريحان صاحب محل الرفا الصغير الواقع على حافة باكوس أقل مأساوية "الدكاكين حوله راحت تتغير في السنوات الأخيرة، تزداد إضاءة وتزداد أناقة، بينما ظل دكانه يشحب حتى أن الكثيرين من السكان الجدد كانوا يمرون به دون أن يروه" إلى أن وقفت ذات يوم شاحنة أمام الدكان ونزل السائق متبوعاً بإثنين من الحمالين" وبعد شيء من التردد دلف الرجلان إلى الداخل وعادا على الفور محملين بالأشياء "بينما يتساءل حسام أصغر الأحفاد "الدكان خلاص يا جدو؟"

وتنتهي قصتنا بهذه الكلمات "إنحنى ظهره، وبانت كرمشات وجهه، ولم يستطع النطق" . وما زاد على ذلك من سطور فأرى ألا ضرورة لها. أما دكان عزة رشاد فما يزال مزدحماً ــ كما نأمل ــ بإبداعات متواصلة.

يوسف الشاروني

fb/mashro3pdf

الفهرس

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

***القسم الأول:**

نصف ضوء:

١ــالرابحة.....13

٢ــالمفعوصة.....25

٣ ــ خيط ممدود.....35

٤ ــ لا أحد يغضب من أميرة.....41

٥ ــ نصف ضو.....51

***القسم الثاني:**

كانوا ومايزالون

١ ــ قدماه صغيرتان..... 69

٢ ــ في الصالة المكتومة.....75.

٣ ــ عقدة لسان عم ريحان.....85

٤ ــ عازل للصوت.....97

٥ ــ دوائر الفوضى.....107

٦ ــ أوسكار.....115

دراسة أ_ يوسف الشاروني.....123

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تتناول هذه المجموعة العالم الداخلي للمجتمع النسائي الذي تطل عليه ومنه الكاتبة عزة رشاد لتطلعنا على ما يدور في خبايا مستوياته المختلفة: طالبات، فقيرات في أحياء شعبية، شخصيات من الطبقة الوسطى، حتى البلطجيات والمسجلات خطر. ورغم فصاحة الأسلوب إلا أنها تطعمه من حين لآخر بتعبيرات عامية ومقطوعات من أغانٍ شعبية وما أطلق عليه ابن جني "مصاقبة الألفاظ لأشياء المعاني" مما يهب القصص نكهتها الشعبية حيناً والمصرية حيناً آخر والحضور المجسم حيناً ثالثة.

وبيئات القصص تتأرجح بين المدينة والريف الذي غزته طلائع المدينة. بينما تتأرجح شخصياتها ما بين طقوس "وصبارات وشواهد قبور صغيرة" (قصة "خيط ممدود").

أما محاور القصص فهي العلاقات البشرية في تطورها بين هذين الطرفين وما بينهما من علاقات متآلفة حيناً، متوترة حيناً، متقاطعة أحياناً، غير متوازية مرة رابعة كما في قصة "في الصالة المكتومة".

fb/mashro3pdf
رسوم وتصميم الغلاف: علا بدار